المكتبة الثقافية

-٣-

علي محمد العمير



الناشر

دار العمير

للثقافة والنشر

جدة - ص.ب ، ٨٩٥٢٠

الطبعة الثانية

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب عنوانه (أدب وأدباء) .. وهو عنوان يدل بكل بساطة عل
المحتوى ، موضوعات أدبية كتبت في تواريخ مختلفة ، ومناسبات شتى مع غ
قليل من (أدب الاخوانيات) الذي هو أدب الدعابة والملاطفات بين الأدب
بعضهم البعض بمناسبة أو أخرى .

ولقد كان لي بعض النصيب من هذه المداعبات والملاطفات مع غير قليل م
أدبائنا ، سواء عن طريق المراسلات أو الرسائل ، وهو ما سأنشر بعضه — إ
شاء الله — في كتاب مستقل ، عنوانه (من أدب الرسائل) .

أما ما نشرته هنا فهو مختارات يسيرة من هذا النوع من أدب الدعاب
والملاطفات و (الملاحظات) أيضا .. وكل ذلك عبارة عن مجموعة من المقالات
كتبتها أنا أو كتبها غيري ، ولكني كنت السبب في دفعه لكتابتها .

وما يخجلني هنا إنني قد اضطررت لنشر هذه المقالات للغير بكاملها (وهي
ثلاثة مقالات فحسب) ، حفاظا على النص الأصلي ، رغم وجود بعض الثنا
على شخصي الضعيف هنا أو هناك في هذه المقالات الثلاث .

ويعلم الله إنني ما كنت لأنشر الثناء على نفسي في كتاب يحمل اسمي ، لول
أن الثناء لم يكن هدفا في ذاته وإنما جاء ضمن موضوعات أدبية ، لا يمكن
فصلها عنها ، ولا يمكن حذف الثناء وإبقاء الموضوع الأدبي لأن ذلك معناه بت

وضوع فضلا عن كونه عدم أمانة في نقل النص .. فإذا كان ما نقلته في هذا كتاب من ثناء على شخصي يعتبر كفراً أدبيا .. فإنني أقول :

(إن ناقل الكفر ليس بكافر) !!

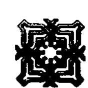
بيد أن الكتاب ليس كله ثناء في ثناء .. بل إن الثناء — وهو مصدر تزازي — ليس غير أيسر وأهون ما في الكتاب .. أما سائر مادته فهي من أدب الخالص بصرف النظر عن مدى جودة هذا الأدب أو عدم جودته .. ذلك ليس من شأني .. بل هو من شأن القراء والنقاد !!

غلب ظني أن هذا الكتاب لا يمكن أن يخلو من حسنات بجانب — ما لابد قد عتورته من سيئات — أو أنه لا يخلو من حسنة واحدة صغيرة ، وهو أنه يعكس ي موضوعاته بعض الملامح الأدبية التي كانت سائدة وقت نشر كل موضوع من وضوعات هذا الكتاب بسبب تفاوت تواريخ النشر .

ولذلك حرصت على إثبات تاريخ نشر كل موضوع في نهايته ليستطيع قارىء أو الناقد أن يضع النص في ظرف العصر الذي نشر فيه ، أو المناسبة تي كتب فيها .

وليس عندي ما أقوله غير ذلك .. والسلام .

١٤٠٣/٥/١ هـ — علي محمد العمير



مع الأستاذ الربيع

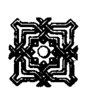
كانت تربطني بالصديق الأستاذ الناقد الكبير (عبد العزيز لربيع) ـ رحمه الله وغفر له ـ روابط قوية جدا من صادق الود ، ومحض لوفاء ، وخالص المحبة كأنما عنانا الشاعر بقوله : (أدب أقمناه مقام لوالد) .

وقد سنحت له فرصة طيبة لمداعبتي على صفحات الصحف بعد أن كانت المداعبات بيننا على مستوى المجالس فحسب .. بل سنحت له الفرصة ليعرب عن مشاعره الكريمة الفياضة تجاه شخصي الضعيف .

كنت أكتب زاوية يومية فى البلاد تحت عنوان (على الماشى) فاستشهدت مرة بالبيت الشهير :

ن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

ونسبته تسرعا إلى أبي العلاء بينما هو لأبي العتاهية .. فلم ألبث غير أيام ، وإذا بي أفاجأ فى عكاظ بالمقال الرائع التالي نصه ، ويليه ردي عليه :





بين أبي العتاهية وأبي العلاء

صديقي الأستاذ علي العمير أديب بارع وصحفى لامع فهو قد جمع في براع
ليست غريبة عليه بين الأدب والصحافة وإن كان يبدو أن الصحافة قد أخذت
تستأثر بجهده ونشاطه وذلك شيء طبيعي فهو يعيش أيامه ولياليه في دوامة
الصحافة التى تلفه بعنف فلا تكاد تترك له وقتا يفرغ فيه إلى قراءة كتاب أو
إعداد بحث أو ممارسة هوايته في المناوشة أو المناقشة !!

وهو بعد ذلك أو قبل ذلك أو مع ذلك كاتب خفيف الروح عذب الكلمة
رشيق الأسلوب ولكنه شديد الأسر عنيف الخصومة يضرب بلسانه أرنبة أنفه !

وكم كان بودي لو خلص هذا الصديق الأديب من أسر الصحافة ليفرغ إلي
إنعاش الحركة الأدبية بتعليقاته الذكية وتعقيباته الألمعية ووثباته الذهنية .

وما أشك في أن صديقي يود ذلك من كل قلبه ولكن هذا الدور الخطير
يتطلب صفاء الذهن وفراغ البال وتوفر الامكانات . وكل هذه الأمور غير متاحة
لصديقي الأديب .

وهذا لا يعني أن صديقي الكاتب الأديب خاضع لظروفه مستسلم لها فلديه
من الطاقة ما يجعله قادرا علي استخلاص وقت من وقته للقراءة الجادة والاطلاع
المثمر وعنده من الذكاء والألمعية ما يوجد له الوسائل ويهيىء أصلح الظروف
لممارسة هواياته الأدبية والنفاذ إلى أسرار الشعراء والأدباء والباحثين لاستغلالها فى
تعريتهم والهجوم عليهم .

وخلاصة القول أن الأستاذ العمير أديب بارع وصحفي نابغ وقارىء من طراز
فريد وصديق صادق الود عظيم الوفاء .

والأستاذ العمير واحد من القلة القليلة من كتابنا في الصحف اليومية ممن
أحب أن أقرأ لهم كل ما يكتبون .

وكضريبة لهذا الاعجاب فانني أرجو أن يأذن لي الصديق الكريم في أن أتناول
بين الفينة والفينة بعض ما يكتب مما أراه يستحق الاشادة والتعليق .

وقد كتب الصديق الأديب في إحدى (أسبوعياته) عن مشكلة الفراغ ..
وأنا لا أريد أن أعرض لشيء مما ورد فى مقاله عنها فذلك أمر لا يعنيني لأسباب
لايعني القاريء معرفتها ، ولكن الذى يعنينى هنا هو أن أشير إلي خطأ أدبي وقع
فيه الصديق الأديب من غير قصد فقد استشهد في مقاله بالبيت المشهور :

إن الشباب والفرغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وبدلا من أن ينسبه إلى قائله الحقيقي نسبه إلى شاعر آخر : لقد نسبه إلى
فيلسوف المعرة أبي العلاء المعري بينما الواقع أنه للشاعر الشهير (اسماعيل بن
القاسم) المكنى بأبي العتاهية .

وهذا البيت من أرجوزته (ذات الأمثال) ويصفها بعض مؤرخي الأدب بأنها
(من بدائع أبي العتاهية ويقال أن فيها أربعة آلاف مثل) وقد لاقت هذه الأرجوزة
استحسانا كبيراً من الأدباء ونقدة الشعر حتى ليقول (الجاحظ) في تعليقه على
أحد أبياتها :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

يقول الجاحظ : في قول أبي العتاهية (روائح الجنة في الشباب) معنى
كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة
إلا بعد التطويل وادامة التفكير .

(وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه) .

ومع أن كثيرا من شعر أبي العتاهية قد بقي محفوظا إلى يومنا هذا فان أرجوزته قد عدا على أكثرها النسيان فلم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتا . وإذا لاحظ أن كل بيت من الأبيات الباقية التى سلمت من الضياع يحتوي على مثل واحد كان معنى هذا أن عدد أبيات الأرجوزة أربعة آلاف بيت من الشعر وهو قدر كبير كم وددت لو بقي إلي يومنا هذا فهو في الواقع ثروة شعرية ضخمة . وبالرغ مما يبدو من مبالغة في عدد أبيات هذه الأرجوزة فانني لا أستبعد أبدا أن تكون قد تطاولت إلى ما بعد الألف من الأبيات بقليل أو كثير فأبو العتاهية أصيل الشاعرية سهل الأسلوب كثير الافتنان حتى لقد وصفه نقاد الأدب وشيوخه بأنه « أشعر أهل هذا العصر » وقال عنه بعضهم « أنه أشعر الجن والانس » .

ويقول عنه العلامة المبرد « كان اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخد لشعره ديباجة . ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا » .

ويروي مؤرخو عصره أنه كان يقول : « لو أردت أن أجعل كلامى كله شعر لفعلت » .

وهو قول يدل على قوة واقتدار وثقة بالنفس لا تحد ولكنه قد يوحى أيض بسهولة شعره سهولة قد تقربه إلى العامية وتجعله مجرد ألفاظ تافهة في قوالب من النظم .

إلا أن الواقع هو أن أبا العتاهية قادر في جميع أحواله على أن يبعث في شعر حرارة وحيوية وأن يجعل من هذا الشعر جسرا يربط بين العامة وبين المثقفين ثقاف رفيعة فيلتقون على الاعجاب به والثناء عليه .

وليس أدل على ذلك من أرجوزته « ذات الأمثال » فمع أنها فى ظاهرها أقرب إلى أن تكون شعرا تعليميا بسبب اختيار وزن الرجز قالبا لها وهو وزن حاول بعض النقاد أن يستبعده من الأوزان الشعرية بسبب ما فيه من ركود ورتابة .

وبسبب اهتمام الشاعر بجمع الأمثال في أرجوزته هذه وهو اهتمام من شأنه أ

يحد من انطلاق الشاعر ويحول دون تحليقه ولكن أبا العتاهية استطاع أن يضفي على أرجوزته غير قليل من رواء الفن وأن يرتفع بها إلى مستوى شعره .

ومما يذكر أن أبا العتاهية عرض للفراغ مرة أخرى في أرجوزته فقال :

ما أسرع البغي لكـــل باغ ورب ذى بغي من الفـــراغ

والمعنى الذى تضمنه البيت معنى عميق جدير بالتأمل .

أما البيت الذى استشهد به صديقنا العمير فقد ورد في بعض الروايات هكذا :

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الشبـــاب والفـــراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

وعلى الأستاذ العمير إرضاء للشاعر الذي ظلمه بأخذ بيته ونسبته إلى أبي العلاء أن يعرف الناس بصديق الشاعر : مجاشع بن مسعدة ولعله يهتدى إلى سر مجاشع هذا وإلى الأسباب التى دعت الشاعر إلى أن يتوجه إليه بهذا النصح . وهل تربطه بالكاتب البليغ عمرو بن مسعدة أخوة أو قرابة أو نسب أم أن الأمر مجرد اتفاق في اسم الأب ؟

وقد خطر لي لأول وهلة وأنا أقرأ بيت أبي العتاهية منسوبا إلى المعري تلك القصة التى يشير إليها القرآن الكريم في سورة (ص) « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب » .

وقد اشتهر كثير من أبيات أبي العلاء في الحكمة على ألسنة الناس أما أبو العتاهية فلم يشتهر من شعره غير هذا البيت المفرد فكانت نسبته إلى المعري أمرا غير مستنكر .

ومع هذا فأنا لا أشك مطلقا في أن الحاسة الأدبية عند صديقي العمير قادرة تماما على أن تميز بين حكمة أبي العتاهية وحكمة المعري وبعبارة أدق أن الحاسة الأدبية

لدى الأستاذ العمير قادرة على أن تميز بين الصياغتين لدى فيلسوف المعرة وحكيم الزهد .. ولكن الأستاذ العمير كان يعالج مسألة من وحي الساعة بأسلوب صحفي فلم يكن يعنيه المعري أو أبو العتاهية بقدر ما كان (مشغول) الذهن بالحديث عن مشكلة (الفراغ) .

ولعل هذه القضية الأدبية تصلح مثالا لمايمكن أن تجنيه الصحافة على الأدب .

وأمر أبي العتاهية يدعو إلي العجب فهو شاعر من شعراء عصر ازدهار الدولة العباسية وهو من الطبقة الأولى بين شعراء عصره . وهو أحد ثلاثة يقول مؤرخو الأدب لا يستطاع الاحاطة بشعرهم لكثرته . وقد تفرد باتجاه خاص عن بقية نظرائه في جمهرة شعره إذ حمل لواء الدعوة إلى مقاومة الترف ومكافحة الشهوات والزهد فى ملذات الدنيا وافتن في ذلك افتنانا عجيبا .

والواقع أن الدعوة التى حمل لواءها أبو العتاهية كانت دعوة ضرورية بعد ظهور كثير من الانحراف والتفسخ وارتفاع الأصوات التي تدعو إلى الاستهتار بالقيم والعبث بمكارم الأخلاق .

كان الناس في عصره بحاجة إلى من يذكّرهم فيحسن تذكيرهم وإلى من ينبههم إلى ما يعيشون فيه من وهم وخداع . وإلى من يلفتهم إلى الدار الآخرة .

ولكن أثر أبي العتاهية كان ضعيفا .. ربما لأن التيار المضاد كان عنيفا كما يتراءى ذلك للباحث من أول وهلة ولكن بعض العارفين ببواطن الأمور يعزون ضعف أثر أبي العتاهية إلي سببين آخرين يعودان إلى ذاتية أبي العتاهية أو إلى أمور باطنية فيه نابعة منه . إذ يتهمون أبا العتاهية بأنه لم يكن صادقا في دعوته إلى الزهد إذ كان يكنز الذهب والفضة في نفس الوقت الذي كان يحارب فيه الكانزين .

بل يذهب هؤلاء العارفون إلى أن دعوة أبي العتاهية إلى الزهد في الدنيا والرضا باليسير والقناعة بالقليل ليست دعوة صادرة عن إيمان صادق بالمبادىء التى ظل طول حياته يبشر بها ويدعو إليها ولكنها صادرة عن حقد مدمر يأكل قلبه على

الأغنياء وأرباب الثروة ولذلك صمم على أن يجعل من شعره ملحمة حزينة تنغص على الناس حياتهم وتنكد عيشهم وتصبّحهم بالمآسي والآلام وتمسّيهم بألفاظ الخراب والدمار والمقت فلا يسوغ لهم شراب ولا يهنأ لهم بال ولا يهدأ لهم خافق ولا تكف لهم عبرة .

وهكذا فقد شعر أبي العتاهية الصدق ففقد العنصر الأساسي للشعر الأصيل وكان لذلك أثره في انصراف الأدباء والباحثين عنه فبينما نجد أن ما كتب عن ندّه ومعاصره والذي يسير في اتجاه مضاد لاتجاهه وهو الحسن بن هانيء وبينما نجد أن ما كتب عن الحكيم الشاعر الفيلسوف الذي جاء بعده بكثير (المعري) فبينما نجد أن ما كتب عن أحدهما لو جمع لكون مكتبة لها وزنها وقيمتها لا نكاد نعثر على كتاب عن أبي العتاهية ولم أجد في مكتبتي إلا كتابا واحدا عنه لم أقرأه بعد .

وقد لاقي شعره — فيما يظهر — رفضا في حياته وبعد مماته وما نسبة بيته (الفرد) إلى أبي العلاء — وإن كان سهوا وعن غير قصد — إلا نوعا من هذا الرفض نتيجة لعدم صدقه فيما كان يدعو إليه . كما يقول مؤرخو الأدب .

وإذا صح هذا الرأي فانني أرى أن الشاعر لابد وأنه كان صادقا فى حقده على المجتمع أو على طبقات منه وهذا سر ما فى شعره من حرارة وحيوية رغم كل محاولات الرفض التى قوبل بها .

وقضية شعره بين الرفض والقبول تتطلب بحثا عميقا ربما فرغت له فى مقبل الأيام إن شاء الله .

أما بعد فقد كانت فكرة المقال في أساسها دعابة لصديقى العمير ولكنها تحولت — ولا أدري كيف — إلى بحث جاف ثقيل :. وإذا كانت الصحافة تجني علي الأدب أفلا يكون المعقول أن يكون هذا المقال واحدا من الشواهد على جناية الأدب على الصحافة ؟

عكاظ ١٣٩٢/٧/٢٦ هـ

بين أبي العتاهية وأبي العلاء

تمنيت أن أخطىء كل يوم مائة مرة على الأقل فأنسب بيتا من الشعر لأبي العتاهية إلى أبي العلاء .. ثم أظفر بمثل هذا التعليق الشائق الرائق ، وبمثل هذا الثناء العطر الجم المستطاب الذي دبجه يراع صديقي الكبير الأستاذ عبد العزيز الربيع في مقاله المنشور بجريدة عكاظ بتاريخ ٩٢/٧/٢٦ هـ تحت عنوان (بين أبي العتاهية وأبي العلاء) .

فلقد حشد صديقي وأستاذي مقاله هذا بفيض من عواطفه النبيلة ، ومشاعره الصادقة ، ووفائه العظيم ، وثنائه الجم على شخصي الضعيف .. فوالله ما أدري هل أتيه بالثناء .. أم أحتفل بتصحيحه للخطأ الذي وقعت فيه عندما نسبت في أحد أسبوعياتي بيتا لأبي العلاء المعري .. أم أعجب لهذا الاستطراد الرائع الذي حفل به مقال الصديق الأستاذ عن أبي العتاهية بالمناسبة ؟!

لست أدرى من أي ذلك أعجب ، ولكن الفضل من معدنه لا يستغرب ، وأستاذنا الربيع معدن فضل ، وجوهر كرم ونبل وشهامة وأخاء ووفاء[1] ووالله لولا أن يقال (يتقارظان الثناء) لكان لي من بين شقي هذا القلم ، مندوحة فى إنصافه ، وميدان رحب للتنويه بفضله ، وذكر ما هو له أهل ، وبه جدير .

فأما ما خصنى به من الثناء فهو من بعض ما عنده ـــ وهذا تعبير عامى ولكنه فى محله ـــ .. وأما ما أسبغه عليّ من صفات ومزايا فهو نبراسها المضيء ، ونجمها المتلألىء ومنارتها الشامخة .. بل هو في كل ذلك وبذلك وغيره مهوى أفئدة الأصدقاء والأحباب ، وفي حبة السويداء من قلوبهم .

---

(١) رحمه الله كان كذلك وأكثر علم الله .

وإني لأقول ما قاله صاحبنا أبو العتاهية :

بلوت رجالا بعده في إخائهم فما ازددت إلا رغبة في إخائه

وكيف لا ازداد إلا رغبة فى إخائه ، وأنا أسير كرمه وفضله ووفائه ؟ ووالله لو لم يكن منه إلا الصفاء والوفاء وحسن التعهد وقوة المنافحة ، وطيب المعشر ، وحلو الحديث لكان في ذلك فضل أي فضل .. فكيف وأفضاله عليّ أكثر من ذلك وأوفى ، وأسمى من ذلك وأنبل ؟

وتالله إنني لم أحفل في حياتى بثناء قط على شخصي الضعيف ، قدر ما حفلت بهذا الثناء من صديقي وأستاذي الربيع ، وقدر ما حفلت قبله بثناء عطر مستطاب من أستاذ جيلنا الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب ، وقدر ما أتيه وأدل وأسحب أذيال الفخار والاعتزاز بما يبلغنى من حسن ثناء شيخنا الأستاذ ضياء الدين رجب في مجالسه !!

وحق لي أن أتيه بكل ذلك ، ولترغم أنف كل حاسد ، فالثناء من مثل هؤلاء درّة واسطة العقد ، والكلمة من أمثالهم لا تقال جزافا .. بل توزن بأغلى الأثمان وأكرم المعادن .

وما أبالي بعد ذلك إلا أن أجهد نفسي في تقوية ما أعرفه وما لا أعرفه عن نفسي من ضعف وقصور وجهل .. فوالله ما رضيت عن نفسي قط إلا عندما أنظر إلى من هو دوني ، ولا ينبغى لطالب علم وأدب أن ينظر إلى ما هو دونه في ذلك ، وإنما ينظر إلى من هو أعلى منه ليهتدي ويقتدي ، ويتطلع ويتحفز .. فلا يعرف فضل أهل العلم والأدب إلا من اكتوى مثلي بنار الجهل ، وشغف نفسه بحب المطالعة والنظر في الكتب .

ولكن أنى لي بذلك ، وانشغالى بتأمين لقمة العيش لي ولأولادي تستغرق من وقتي ليلا ونهارا بما لا يقاس مما يمكن أن يتاح لي لمطالعة كتاب .. أو بعض كتاب .

ولقد وضع أستاذي الربيع سنة قلمه على مدامل الجرح عندي ، وهو الخبير بأحوالي عندما قال : « .. وإن كان يبدو أن الصحافة قد أخذت تستأثر بجهده ونشاطه وذلك شيء طبيعي فهو يعيش أيامه ولياليه في دوامة الصحافة التي تلفه بعنف فلا تكاد تترك له وقتا يفرغ فيه إلى قراءة كتاب أو إعداد بحث أو ممارسة هوايته في المناوشة أو المناقشة » .

ولقد تمنى لي أفضل ما يتمنى الصديق لصديق عندما قال : « وكم كان بودي لو خلص هذا الصديق الأديب من أسر الصحافة ليفرغ إلى ... »

ومكان الأصفار ثناء على شخصي لا أبيح لنفسى نقله بقلمى — فهيهات يا أستاذي الصديق أن أخلص من أسر الصحافة ، وقد اتخذتها مهنة ، وابنكم الصغير فوزي وإخوان له وأخوات كزغب القطا ينتظرون عودتي كل يوم وليلة أو يغلبهم النوم وأنا في المطابع ، تارة أتلقي الأوامر ، وأخري أحرر الأخبار ، وثالثة أصحح العناوين .. ثم لا أسلم مع كل جهد من مؤاخذة رئيس أو تهاون مرؤوس ، أو كزازة زميل !!

ولا والله ما قصدت أن أضيف بعض همومي إلى همومك أيها الصيق الغالي ، ولكنها نفثة مصدور ، وبعض شكوى إلى ذي مروءة !!

فأما ما أشرت إليه أيها الصديق الكبير من خطأي بنسبة هذا البيت :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

إلى أبي العلاء المعري بينما هو لأبي العتاهية .. فهو خطأ لاشك فيه ، ولكن هل يستطيع قلمي هذا المتواضع أن يعتذر لي أكثر مما اعتذر قلمك البليغ عندما قلتم : « ومع هذا فأنا لا أشك مطلقا في أن الحاسة الأدبية عند صديقي العمير قادرة تماما علي أن تميز بين حكمة أبي العتاهية وحكمة المعري ، وبعبارة أدق فإن الحاسة الأدبية لدى الأستاذ العمير قادرة على أن تميز بين الصياغتين لدى فيلسوف المعرة وحكيم الزهد ، ولكن الأستاذ العمير كان يعالج مسألة من وحي الساعة بأسلوب صحفي فلم يكن يعنيه المعري أو أبو العتاهية بقدر ما كان

مشغول الذهن بالحديث عن مشكلة (الفراغ) !!

ولعل هذه القضية الأدبية تصلح مثالا لما يمكن أن تجنيه الصحافة على الأدب » .

هل أجد عذرا أبلغ وأسمى وأصدق وأنبل من ذلك ، وإلا فإن صديقي الكبير علي يقين إنني لا أجهل أن هذا البيت لأبي العتاهية وأنه من ضمن قصيدته (ذات الأمثال) ولكن ما بالك بسبق القلم وزحمة الصحافة وضيق الوقت وضجيج المطابع ، وارتفاع صوت أستاذنا الشبكشي وهو يتميز غيظا وغضبا من تأخر الأخبار أو تأخر الصف أو كثرة الأخطاء أو غير ذلك من المشاكل .

وأنا يا سيدي أكتب معظم ما أكتبه في مثل هذا الجو الهادىء ولا هدوء يوم ينفخ فى الصور !!

فأما ما ذكرتموه يا سيدي الكريم من أن ذلك يصلح مثالا لجناية الصحافة علي الأدب .. فأنا أتمني عليك أن تفرق في مقال قادم إن شاء الله بين جناية الصحافة علي الأدب ، وبين جناية الصحافة علي الأديب عندما يعمل صحفيا ، فجناية الصحافة علي الأدب أمر تداولته الأقلام كثيرا ، ولكن جناية الصحافة علي الذين تضطرهم ظروف المعيشة ، وإلحاح الحاجة إلى ما يقيم الأود أمر يحتاج إلى بحث وإلى تنويه وإلى إنصاف من أمثالكم .. فلعل وعسي !

ولقد داعبتني يا سيدي الكريم ، مداعبة لطيفة آسرة ، ولكنها شاقة عسيرة بالنسبة لمثلي مع ما تعرفه عن ظروفي عندما قلت في مقالك : « أما البيت الذي استشهد به صديقنا العمير فقد ورد فى بعض الروايات هكذا :

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

وعلى الأستاذ العمير ، إرضاء للشاعر الذى ظلمه بأخذ بيته ونسبته إلى أبي العلاء ، أن يعرف الناس بصديق الشاعر : مجاشع بن مسعدة ، ولعله

يهتدي إلى سر مجاشع هذا ، وإلى الأسباب التي دعت الشاعر إلى أن يتوجه إليه بهذا النصح ، وهل تربطه بالكاتب البليغ عمرو بن مسعدة أخوة أو قرابة أو نسب .. أم أن الأمر مجرد اتفاق في اسم الأب » .

لقد داعبتني أيها الصديق الغالي هذه المداعبة القاسية وأنت تعلم جيدا أنني لا أملك من وقتي فضالة تزيد عن حاجة الطاحونة إياها ، ومع ذلك فقد جهدت فى البحث عن (مجاشع بن مسعدة) هذا في الكثير من المظان التى أمكنني الرجوع إليها فلم أجده ، رغم يقيني المسبق أو شبه يقيني أن الرواية من أساسها ضعيفة بل غير صحيحة لأنها ليست من نسق أرجوزة أبي العتاهية ، ولأن صاحب الأغانى قد أورد في الجزء الثالث (ص ٢٧٢) بعض هذه الأرجوزة ، وكان البيت الذي قبل البيت موضوع البحث هو :

من جعل النمام عينا هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا

ثم تلا ذلك قوله :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسده

ومن ذلك يتضح تماما أن النسق لا يستقيم مع الرواية التى أشرتم إليها وهى :

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفراغ والشباب والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

ولكن يبدو أن سبب هذه الرواية التى أشرتم إليها ، هو أن أحد الأدباء ،أو ربما الشاعر نفسه أراد أن يتظرف مع صديق له أو ينصحه ، ولابد أن يكون اسم هذا الصديق(مجاشع بن مسعدة) فقال له :

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفراغ والشباب والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

وفى كلمة (علمت) ما يدل على أن شطر (علمت يا مجاشع بن مسعدة) مقحم إقحاما على أرجوزة أبي العتاهية إذ تدل كلمة (علمت) على أن البيت أسبق من هذا الشطر ، وأن هذا الشطر مجرد مخاطبة للسيد (مجاشع بن مسعدة) الذي لابد أنه قد غرق إلى أذنيه في (الشباب والفراغ والجدة) فكان (لابد أن يفسد أي مفسدة) .. ثم كان لابد لصديقه سواء كان الشاعر أو غيره أن ينصحه فيقول :

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفـراغ والشبـاب والجد
مفسدة للمرء أي مفسدة

ثم لابد أن قد سمع ذلك من سمع فرواه فتناقلته الكتب ، وفي الكتب القديمة أشياء كثيرة من تحريف الرواة ، وملابسات الروايات .

فأما (عمرو بن مسعدة) فهو معروف شهير غير منكر ، كان وزيرا للمأمون ، وأحد الكتاب البلغاء « وكان مذهبه في الإنشاء الإيجاز واختيار الجزل من الألفاظ ، وفي كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته ، وكان جوادا ممدحا فاضلا نبيلا » .

« راجع عنه (الاعلام للزركلي) و (وفيات الأعيان لابن خلكان) و (تاريخ بغداد) و (إرشاد الأديب) و (أمراء البيان) و (المرزبانى) .. كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب (الاعلام) الأستاذ خير الدين الزركلي » .

وقلتم يا أستاذنا الكريم : « ومع أن كثيرا من شعر أبي العتاهية قد بقي محفوظا إلي يومنا هذا فإن أرجوزته قد غدا على أكثرها النسيان فلم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتا .. الخ » .

والواقع أن الديوان المطبوع لأبي العتاهية ليس في حوزتى[1] ولكن لا أعتقد أن أرجوزته أربعة آلاف بيت والتى أشرتم إلى أنه لم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتا ،

---

(١) عثرت بعد ذلك على ديوان أبي العتاهية ودراسة مستفيضة عنه .

وإن كنت أعلم أن يوسف بن عبد الله بن عبد البر قد جمع « زهديات أبي العتاهية » في مجلد كبير ، ولكن لا أعلم هل طبع أم لا ؟

ولست أدري هل يليق بي أن أعيد إليكم (الكرة) فأطالبكم بإيضاح ما إذا كانت البقية الباقية من أرجوزة أبي العتاهية مطبوعة أم لا ؟ أم هل هي مخطوطة موجودة وأين توجد ؟

ولاشك أن في سعة اطلاعكم وواسع علمكم ما يتيح لكم الاجابة عن ذلك إن شاء الله .

وداعبتمونى أيضا يا أستاذي الكريم عندما أشرتم إلى أنه خطر لكم لأول وهلة ، وأنتم تقرأون بيت أبي العتاهية منسوبا إلى أبي العلاء « تلك القصة التي يشير إليها القرآن الكريم فى سورة (ص) » (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب) .

وقلتم أيضا :

« وقد اشتهر كثير من أبيات أبي العلاء في الحكمة على ألسنة الناس ، أما أبو العتاهية فلم يشتهر من شعره غير هذا البيت المفرد فكانت نسبته إلى المعري أمرا غير مستنكر » .

ولست أدري كيف لم يشر أستاذي الكريم إلى أن لشعر الحكمة والأمثال ، وقعا خاصا في النفس العربية القارئة أو السامعة ، وهوى يصادف قلوبا خالية ، ولذلك يتمكّن منها أمثال شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما .

فأما شعر الزهد الذي اشتهر به أو أراد أن يشتهر به صاحبنا أبو العتاهية فانه لا يستهوي التذوق العربى في جاهليته أو إسلامه ، فالاسلام وإن كان يحث على الزهد فى مواضع .. فانه يحث على العمل والكسب المشروع في مواضع أكثر ، و (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) و (اعدوا لهم ما استطعتم من قوة) و (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

وكل ذلك وغيره كثير جدا في النصوص الاسلامية التى لا يتسنى العمل بها إلا بالعمل الجاد والكسب المشروع .. فليس إذن في تاريخ العربي وبيئته وتفكيره ودينه ما يحثه على الزهد أو الرهبنة إلا في مواقف قليلةومحدودة جدا .. فلابد أن يكون الزهد أبعد ما يكون عن أغراض الشعر العربي .. فكيف إذا كان الشاعر الذي يدعو إلى الزهد مثل أبي العتاهية مجرد مولى من الموالي ثم هو من كنزة الذهب والفضة كما هو ثابت عنه في كتب التاريخ والأدب العربي .. وأخباره في كتاب الأغاني وغيره من هذا القبيل مخزية مزرية !

وقلتم يا أستاذنا الكريم :

« ويروي مؤرخو عصره أنه كان يقول — تقصدون أبا العتاهية — (لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت) وعلقتم علي ذلك :

« وهو قول يدل على قوة واقتدار وثقة بالنفس لا تحد ، ولكنه قد يوحي أيضا بسهولة شعره ، سهولة قد تقربه إلى العامية وتجعله مجرد ألفاظ تافهة في قوالب من النظم » .

والواقع أن ما أشرتم إليه بهذه الصفة العابرة أكثر من صحيح وواقع بالنسبة لأبي العتاهية ، وقد نعت في كتاب الأغانى بأنه « قريب المأخذ لشعره ديباجة ، ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا » .

ولكن الحقيقة أنه كان يستهين بالشعر العربي كثيرا — ولا ننسى أنه مولى وعاش في عصر كان فيه الفت في عضد العرب أمرا ميسورا — ، فاجتهد ما وسعه أن يقول أن الشعر العربى — وهو ديوان العرب وفخرهم — من الأشياء السهلة الميسورة ، وذلك هو ما أشرتم إليه من قوله : « لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت » .. فكأنه يقول ، هذا وأنا مولى من موالي العرب ؟!

وأمثال ذلك من استهانته بالشعر العربي واستهجانه له مما هو مثبت في أخباره التي حفظتها لنا كتب الأدب العربى ، ومن ذلك — كمجرد مثال ، ولو أردت أن أطيل لأطلت — ما أورده صاحب الأغانى (ج ٣ — ص ٢٧٩) قال :

« قال أبو العتاهية : أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم ، قال : فبينما نحن كذلك إذ قال رجل لآخر عليه مسح : (يا صاحب المسح تبيع المسحا) ، فقال لنا أبو العتاهية : هذا من ذلك ، ألم تسمعوه يقول : (ياصاحب المسح تبيع المسحا) ؟ قد قال شعرا وهو لا يعلم ، ثم قال الرجل : (تعال إن كنت تريد الربحا) فقال أبو العتاهية : وقد أجاز المصراع بمصراع آخر وهو لا يعلم ، قال له : (تعال إن كنت تريد الربحا) .

وهذه الرواية — كما قلت — مجرد مثل ، وإلا فإن غيرها كثير مما يدل على استهانة واحتقار أبي العتاهية للشعر العربي ، وقد ظن بما أوتيه من استطاعة على نظم القوافي والأوزان أنه قد ملك ناصية الشعر العربي ، وأنه لذلك سهل حتى على بائع (المسح) !

ولقد تنبه لذلك وأمثاله (مسلم بن الوليد الأنصاري) « حين اجتمع به أي بأبي العتاهية » في بعض المجالس ،فجرى بينهما كلام ،فقال له مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثلك :

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

لبيك ان الملك لك

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكني أقول :

موف على مهج في يوم ذى رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال من الرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلا يأتي على مهل
يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل

ولا شك أن مثل أبي العتاهية لا يجهل كل ذلك ، ولكنه قد أوتي قدرة على النظم ، ولا يخلو أيضا من شاعرية ، وإن كانت نادرة ، ربما لاستخفافه بأغراض الشعر العربي .. بل بالشعر العربي نفسه .

بل ما لنا نذهب بعيدا ، ولا نستشهد برأي أبي العتاهية نفسه في شعره

(الأغانى ج ٣ ص ٣١٠) .

« حدثنى ابن أبي الأبيض قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إني رجل أقول الشعر في الزهد ، ولي فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب استحسنه ، لأني أرجو أن لا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى ، فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدني من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ـــ يقصد نفسه ـــ رديء ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة .. الخ » .

فهو إذن ـــ أي صاحبنا أبي العتاهية ـــ يعرف تماما أن الشعر العربي ليس من نوع هذره ولغوه ، ولا من نوع (يا صاحب المسح تبيع المسحُا) ، وإنما هو شيء في أشعار المتقدمين ، وفي أشعار بعض معاصريه من أمثال بشار وابن هرمة .

أما هو في (زهدياته) فيعرف أنه يكذب ، وأنه ينظم الأمثال نظما ـــ لا شعرا ـــ وأنه يتكلف لكل ذلك ، ويعرف أنه في سائر شعره أما مستجد ذليل من مثل قوله :

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشي إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدي جعلت شراكها خدي

وأما يفاكه وينظم في أغراض ساقطة ليست من الشعر أو الحكمة أو الزهد في شيء ، ومن ذلك أنه صار مرة إلى معاصره الشاعر (سلم الخاسر) ـــ على خسارته فى بيعه المصحف بالطنبور ـــ فقال له : « جئتك زائرا » فرد عليه سلم الخاسر : مقبول منك ومشكور أنت عليه .. الخ (ج ٣ ص ٣٣٣ الأغانى) .

فقال أبو العتاهية : دعني من هذا واسمع مني أبياتا ، فقال له (سلم الخاسر) هات فأنشدنى :

فأنشده أبياتا (لا داعى لذكرها هنا) ثم قال له : كيف رأيتها ؟ فقال له : لقد جودتها لولا أن ألفاظها سوقية ، فقال : والله ما يرغبنى فيها إلا الذي زهدك فيها » .

هذا وأمثاله من الأشياء التى أشرت إليها ، ومن الأشياء التى لا أستطيع الاحاطة بها في هذا المقال السريع المتواضع ، الذى أكتبه وأنا على عجلة وقهر من أمري في شأن وقتي ، والذى وصلت إلى هذا الحد منه أي مقالى في الوقت الذي تطل فيه أخت (يوشع) بأشعتها ، وقد قضيت أكثر من ثلثي ليلتي في المطبعة ، وبقيتها في كتابة هذا المقال !

قلت : هذا وأمثاله من الأشياء التى أشرت إليها والتى لم أشر إليها ، من أسباب سقوط شعر أبي العتاهية ، لأنه كان فاسد النية ، ساقط الهمة ، سوقي الألفاظ ، ولذلك كله ليس غريبا ، ولا مستنكرا ، ولا مستبعدا ،أن يسبق القلم ، أو يغفو الخاطر فينسب بيتا فردا له من نهج ونسق فيلسوف المعرة أبي العلاء المعري إلى أبي العلاء المعري نفسه ، فذلك ــ كما يقول أستاذنا الربيع ــ « أمر غير مستنكر » .

وبعد : فقد أشار أستاذنا الربيع في نهاية مقاله إلى أن شعر أبي العتاهية قد لاقى « رفضا في حياته وبعد مماته » .

ثم قال :

« وما نسبة بيته (الفرد) إلى أبي العلاء ــ وإن كان سهوا وعن غير قصد ــ إلا نوعا من هذا الرفض ، نتيجة لعدم صدقه فيما كان يدعو إليه ، كما يقول مؤرخو الأدب .

وإذا صح هذا الرأي فإنني أري أن الشاعر لابد وأنه كان صادقا في حقده على المجتمع أو على طبقات منه ، وهذا سر ما في شعره من حرارة وحيوية رغم كل محاولات الرفض التي قوبل بها » .

أي سر أم أية حرارة أو حيوية في شعر أبي العتاهية يا أستاذي الكريم ؟!

قد تحتج إذا شئت ــ ولا أظنك تتعنت بالحجج الأدبية الواهية على صديقك وتلميذك ــ فتقول : إن أبا العتاهية كان من المقدمين والمقربين والمفضلين من شعراء عصره .

ولكن هل يعقل أن ننسى أن أبا العتاهية وأمثاله في عصره إنما كانوا يقربون ويقدمون ويفضلون لأمثال قول أبي العتاهية نفسه :

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدي ، جعلت شراكها خدي

فأي سر أم أية حرارة في شعر أبي العتاهية يا سيدي الكريم ؟

وهل مثل هذا مما يجعل أبا العتاهية ، في نظر الذوق الفني الأدبي من الشعراء ؟

لا والله ، ولكنها أيام خلت ،وأسأل الله أن تكون أيامنا عامرة بالذوق والفن والجمال !

عكاظ ١٣٩٢/٨/٥ هـ



مع معالي
الأستاذ محمد عمر توفيق

كنت أشرف على صفحة (أدب وأدباء) في جريدة البلاد ، وكنت أحاول جاهداً رفع مستواها باستقطاب الأقلام البارزة للكتابة فيها .. وكانت لي أساليب شتى في مسألة الاستقطاب هذه .. فالكاتب الذى لا أستطيع أو لا أفلح في اقناعه بالكتابة للصفحة الأدبية التي أشرف عليها ألجأ ألى أسلوب (جر الشكل) فأنشر خبرا مثيرا ، أو رسالة استفزازية .. أو نحو ذلك من الأساليب .

وحكاية الرسالة الاستفزازية هي التي طبقتها مع أستاذنا الكريم محمد عمر توفيق ، وكان حينئذ وزيرا للمواصلات ، وكنت على يقين بأنني لن أستطيع إقناعه بالكتابة لصفحتي وسط زحمة مشاغله .. فكتبت له الرسالة الاستفزازية التالي نصها ، ونشرتها في صفحة الأدب نفسها .. وها هي الرسالة بالنص ..





رسالة إلى محمد عمر توفيق

صاحب المعالي الأستاذ محمد عمر توفيق ..

كنت البارحة في ذكرك أو في سيرتك مع ــ ما غيره ــ الأستاذ عبد المجيد شبكشي ، أو الأستاذ رئيس التحرير ، أو كما ندعوه نحن في جهاز التحرير (الوالد) .

ذكرتك فذكرت (الذكرى) وأنا رجل أحرر هذه الأيام ، صفحة الأدب والأدباء ، ومن ثم تداعت الذكريات فكانت مناسبة لتوجيه هذه الرسالة إليك .

والواقع أن الرسالة كما أردتها منذ البداية موجهة ليس إلى صاحب المعالي الوزير محمد عمر توفيق ، فليس عندي أدنى مشكلة أو قضية في المواصلات ، وإنما هي : أي الرسالة ــ موجهة إلى (الأديب) الأستاذ محمد عمر توفيق . ولكن وجدت أن لابد من ذكر اللقب الرسمي (صاحب المعالي) قبل لقب (الأستاذ) ليس فقط للمحافظة على اللياقة واللباقة .. بل لأن ذلك هو الواقع .

وهذا الواقع يجعلنا أمام شخصين في أهاب واحد .

الشخص الأول هو صاحب المعالي الوزير ، وهذا مع إجلالنا له ــ لا علاقة لنا به في هذه الصفحة .

والشخص الثانى (الأديب الأستاذ) وهذا صديقنا وصاحبنا وأستاذنا وزميلنا[1] ، بل وحبيبنا أيضا كما يعلم الله .

ولكن المشكلة أن صديقنا (الأديب الأستاذ) قد اندمج كلية فى أهاب ومسؤوليات (صاحب المعالي) فلم نعد نظفر منه بكلمة شائقة

---

(١) كان معاليه زميلنا فى جريدة البلاد قبل توليه الوزارة .

رائقة مجنحة ولو من قبيل الـ (ذكرى)[1] .

وهكذا حتى أصبح كتابه (طه حسين والشيخان) مجرد (ذكرى) .

أما صاحب المعالي الوزير فنشاطه واضح ملموس ، و (نظافته) لا غبار عليها ، وذكره على ألسن الناس بما يذكر به أمثاله كل يوم .

أي سيدي الوزير الأديب .

ألا ترى معي أن معالي الوزير محمد عمر توفيق قد ظلم الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق ؟

إن الأول قد استأثر بكل الوقت والأضواء والمجد والعمل الجاد المثمر ، ولم يترك فرصة قط للثاني أن يمارس أقل وسائل إثبات الذات .. أو (ذكراها) على الأقل .

وهذا ظلم فادح لاشك فيه .

وأعيذك يا معالي الوزير ، أن تنتهز فرصة ذكر (الظلم) فتستشهد لصالحك بقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

فهذه مقالة شاعر لا يعلم إلا الله أية ظروف نفسية كان يعانيها عندما قال هذا ؟ فنستغفر الله لنا وله ولسائر المسلمين أجمعين .

أي سيدي الوزير الأديب .

خلاصة القول وقصاراه والغاية منه هو الشفاعة عند شخصك صاحب المعالي الوزير أن يرفق بشخصك الثاني الأديب ، وأن يحترم له قدر الأسبقية على الأقل

---

1) (ذكرى) ، كان عنوان زاوية يومية يكتبها معاليه لجريدة البلاد .

فيتركه ليأخذ نفساً أو هنيهات يثوب فيها إلى كتابه وقلمه فنظفر نحن على قلتنا في هذه الصفحة بأيسر ما يظفر به كل مواطن من وزارة المواصلات .

والسلام ختام ..

البلاد ١٥/٣/١٣٩٤ هـ

وما أن نشرت هذه الرسالة حتى كان لي ما توقعته حيث وافاني البريد بعد فترة يسيرة بالمقال المطول التالي نصه ، وكان بعنوان (معالي الوزير) .

وقد عقبت عليه بمقال مطول بعنوان (معالى الوزير أيضا) وكنت أقصد الاستفزاز أيضا ، ولكني لم أفلح .. فقد أدرك معاليه (اللعبة) فيما يبدو .

وفيما يلي نص مقال معاليه ، ثم نص مقالي أيضاً :





معالي الوزير

بقلم الأستاذ : محمد عمر توفيق

هل أستطيع أن أكتب ما أحب ؟

وعلى طريقة (سقراط) في الاجابة علي السؤال بسؤال :

هل في وسع أحد أن يعيش دائما كما يحب ؟ إننا نرغب أولا .. وقد تتلاشي الرغبة برغبة أخرى أو بالفراغ إلى حين من كل رغبة .. وقد تستمر وتتحول إلى عاطفة معينة هي الحب .. أي إلى رغبة أقوى تسخر إرادتنا لتحقيقها إذا استطعنا .

وما أيسر الرغبة وحركتها في النفس وعلى اختلاف ما نرغبه بين الليل والنهار ثم يذهب ما لا نستطيع أن نريده إلى الأعماق ويظل على السطح ما يمكن ويستطاع .. وقد لا يتحقق إذا أردناه وإنما يتحقق شيء نكرهه أو شيء لم يكن في الرغبة والحسبان وقد يتحقق ولكن الرغبة تملّه وتتطلع إلى سواه .. ويدفعنا قانون الملل إلى معاناة أحلام جديدة .

وهكذا يبدو أن الانسان تحكمه عوامل أقوى من رغبته ثم من إرادته إذا تحولت الرغبة إلى إرادة أو إلى ورقة عمل كما يقال !

وهناك التفاصيل الكثيرة التى تصور عجز الانسان عن تحقيق أتفه الرغبات في دنيا الضرورات قبل الكماليات .. ويبدو الانسان في مواجهة هذا العجز واحداً من اثنين :

أما ساخط يكتم السخط أو يعلنه في مواجهة واقع الحياة :

واما راض قرير النفس والعين بوقائع حياته دائما كما لو كانت هي التي رغبها وأرادها أصلا !

ربما كان في الناس من يستوي عنده الحلو والمر والأدنى والأعلى لأنه يعيشه في طاقة محدودة من الشعور بالحياة فهو لا يرغب وبالتالى لايريد شيئا معينا ويرضيه الواقع كيفما اتفق .. ولعل هذا هو الطراز المشار إليه في قول المتنبي (وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم) .

إنه طراز أقرب إلى الحيواني يحتويه الناس وإن بدا الخروف ــ مثلا ــ في طمأنينة يغبط عليها وهو يعالج البرسيم والجزار يشحذ المدية ليذبحه في هذه الأثناء !

غير أن المثل العالى هو أن يعيش الانسان نفس الطمأنينة لا كما يعيشها أخو الجهالة أو الحيوان بل كما يعيشها أخو الزهادة أو الفلسفة وبأسلوب من يقول : سأعيش راضيا أو ساخطاً فيما حصل لا فيما أردته ولم يحصل .. والسخط هو الشقاء بعينه فلماذا أفضل جحيمه على جنة الرضى ؟ ولماذا أبيع الطمأنينة بالقلق ؟

إنه مثل عال يلوح سهلا على الورق واللسان ثم يتعذر تطبيقه كلما فشل أحدنا في تحقيق أتفه الرغبات أو أحسنها .. وقد يتظاهر بما تيسر من السخر والضحك والفلسفة وبأن كل شيء على ما يرام ، ولكنه يظل في الأغلب ــ يداري كا يعانيه بعيدا عن ملاحظة الآخرين بينما المطلوب ــ كمثل عال ــ هو أن تخلص النفس من نفاق كهذا إلى وجدان ملؤه اليقين والطمأنينة لأي واقع كان ويكون .. وكأنه أحلى الأماني وأطيب الأحلام !

وحول شيء كهذا تدور فلسفة (ديل كارنيجى) وغيره ممن يحاولون ترويض الأجيال على السعادة ومحاربة القلق !

على أن المبادىء القديمة المبعثرة في كلمات مضغوطة من الشعر والنثر تختصر فلسفة هؤلاء ومؤلفاتهم الكثيرة في هذا المضمار .

وعلى سبيل المثال قول بعض العارفين : (إذالم يكن ما تريد فأرد ما يكون) ، إنها قاعدة تختصر ما بشرت به تلك الفلسفة والمؤلفات ضد القلق فما يشقى

بالحرمان من يضع في حسبانه دائما أن ما يريده قد لا يكون وأن منتهى المراد هو ما كان لا ماقد أراده ولم يكن !

إنها مثالية تبدو كالسهل الممتنع في ممارسة الحياة .. وهنالك أقوال أخرى مأثورة عن الأنبياء والصالحين والفلاسفة والشعراء والكتاب .. فيها خلاصات موجزة لكل ما بشر ويبشر به دعاة الطمأنينة في كل مكان وزمان .

وهناك القرآن الكريم من قبل ومن بعد .. فيه خلاصة الخلاصات التى تهدي إلى الخير وإلى السلوك الأمثل بين مفارقات الحياة وفي كل أحوالها ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالي :

(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) .

لكن هذا حسبنا عندما يحدث لأحدنا ما يكرهه فما أجدره بأن يسعده ما حدث وهو يتصور احتمال الخير فيه ولا ينبغي أن يكرهه حينئذ كما لا ينبغى أن يحبه كل الحب إذا جاء طبق رغبته ومشتهاه لاحتمال الشر فيه وهذا يعني توازن الانسان ومشاعره بين الخيال والواقع وبين الحب والكره والشقاء والسعادة وبين الخير والشر عموما في هذه الحياة .

وما أنا بصدد بحث كهذا حول مقومات الحياة .. وكيف ينبغى أن يكون الشعور الانساني بها وبين مفارقاتها ولكنني انطلقت أول المقال من التساؤل عما إذا كان فى وسعي أن أكتب كما أحب ؟

وينبغى أن أذكر هنا ــ وقد طال الكلام على غير ماتوقعت ــ أن الكاتب الصاعد (على العمير) هو الذى جرني إلى كل هذه الثرثرة التى قد يضيق القراء ذرعا بها فما أكثر ما يقرأون أو لا يقرأون مثلها كل يوم !

لقد وجه على صحيفة (البلاد) منذ بضعة شهور خطابا إلى (الأديب) فى شخصي لا إلى (معالي الوزير) فهذا ــ على حد تعبيره ــ قد ظلم ذلك (واستأثر بكل الوقت والأضواء والمجد والعمل) إلى آخر ما قاله عن (الأديب المظلوم الذي لم يعد يجد وقتا لاثبات الذات أو ذكراها على الأقل) .

ويلتمس آخر الأمر من شخص (معالي الوزير) أن يرفق بشخص (الأديب) وأن يحترم له قدر الأسبقية فيتركه ليأخذ نفساً ولو هنيهات يثوب فيها إلى كتابه أو قلمه !! إلى آخر ما قاله .

ولقد أحسست ما يشبه الدغدغة لتفقد أدبي كهذا من زميل في المهنة وفى الوظيفة قبل المهنة وبعدها فقد كان يوما ما موظفا في وزارة المواصلات فهو ذو علاقة بالشخصين على كل حال !

ولكن هل هما (شخصان) حقا ؟ وهل يمكن الفصل بينهما فلا يتأثر أحدهما بالآخر أو يؤثر فيه ؟!

وفكرت بجد وعلى ضوء علم النفس في ازدواج الشخصية وما قد يكون منه مرضا يعالجه أو لا يعالجه أطباء النفس .. وفكرت بعيدا عن هذا مستعيذاً بالله منه في تعدد الشخصيات وانقسامها وامكان عزل بعضها عن بعض ومعايشة البعض المرغوب دون الابعاض الأخرى بحسب الظروف والتجليات !

البعض الرسمي مثلا — وهو شيء كالظل يتبع (الوزير) أو يتبع ظلا آخر يسمى (معالي الوزير) وإن كنت لا أدري متى وكيف وجد في التاريخ ظل أو إطار كهذا يلوح فيه حامل أثقال أو غير أثقال بشيء كالأبهة والوقار .

هذا البعض الرسمي مطلوب أن يختفى كلما سرد أحدهم قصة مرت به أو بغيره .. مؤكداً لأكثر من مرة أنها لعلمي الشخصي لا الرسمي .

وأهز رأسي بمعنى الموافقة أول الأمر كانصياع تلقائي لفكرة تعدد الشخصيات حسبما قيل ويقال .. ثم أتبين خطورة القصة وعلاقتها الواضحة بالبعض الرسمي إياه فكيف يمكن التظاهر بأنه لم يسمع شيئا يستحق الذكر ؟ ومن هو البعض الذى سمعها ولا بأس عليه من مثل هذا السماع ؟

هو كما يبدو شخص عادي .. ويدور في نفسي أن مسؤولية (الشخص العادى) ما ينبغى أن تقل عن مسؤولية (الشخص الرسمي) — إذا صح

الوعي ـــ عن تقويم الاعوجاج على نحو من قال لعمر بن الخطاب (والله لو وجدنـ
فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا) .

وعلى افتراض أن الشخص العادي غير مسؤول بحكم الوعي المفقود اجمالا فان
الآخر يظل مسؤولا لأن الوعي مفترض فيه بحكم المهنـ
ومتطلباتها ـــ على الأقل ـــ وفي مقدمتها الأمانة والاخلاص .

وأصارح محدثي بأفكاري ثم بفشلي في محاولة الحجز بين شخصين : أحدهـ
لا يعنيه الأمر من باب الوعي المفقود والآخر لم يسعني احتجازه ضد السماع ..
إنه يطالبْ الآن بدليل على القضية أو بالمساعدة على إقامته لتصحيح الخطأ
وتقويم الاعوجاج فاذا هو لا يملك دليلا أو شبه دليل وكل ما هناك أنه قد سمع ..
أو هكذا قيل !

وهو يخشى مغبة الدخول في أية محاولة تسيء لأحد وإن كان مسيئا !

ويؤكد للمرة الأخيرة أنه قد روى ما رواه ليس إلا لعلمي الشخصي فحسب !

وما أكثر ما يدور نحو هذا على الألسنة مما أظنه غير لائق بأهل الوعي مر
ذوي الرأي والمسؤولية على الأخص !

ويأتي ـــ بعد ما سبق عن شخصين في كياني شخص ـــ ثالث
هو ـــ (الأديب) الذى استفزّه أخونا (علي العمير) ضد استبداد أحـ
الشخصين المذكورين به وطالب بانصافه منه .. تماما كما يطالبنى البعض
بالانفصال عن (شخصي الرسمي) المستبد بشخص الأديب كما قال ـــ لأسمـ
ضربا من القصص من طراز ما أسلفت !

ولهذا كان سؤالي في مقدمة هذه الثرثرة هو : هل أستطيع أن أكتب مـ
أحب ؟ وأحسبنى قد انتهيت بعد السؤال والجواب إلى أنه ليس في وسع الانسان
أن يعيش كما يحب فليس في وسعه إذن أن يكتب كما يحب كما ليس في وسعه أن
يقرأ أو ينظر أو يسمع أو يمشي أو يأكل أو ينام دائما كما يحب !

ليس في وسعه أن يعيش إجمالا بالتفصيل دائما كما يحب !

ومع أن الانسان يملك داخله كما يبدو ويتصرف فيه بحرية لا رقابة عليها إلا التي يلتمسها هو — فانه قد يضيق ذرعا بما يلوب في نفسه من وجدانيات يود أن يهرب منها ولو إلى صمت بليد مطبق ولكنه لا يستطيع !

إنه قد يخرج يهرب خارج نفسه .. مثلا من الشاي إلى القهوة ومن زيد إلى عمرو .. من البر إلى البحر ومن السهل إلى الجبل .. من أي معاناة للحياة وغيرها ومن أي شيء لآخر تحريا لما يرغبه ويظن فيه السعادة — وإن كانت هي في الطمأنينة للواقع كما سبق المقال — ولكنه لا يستطيع أن يهرب مما في داخله إلا إليه .. أي إلى داخل نفسه بمحتوياتها العجيبة التى قد تتناقض إلى حد الصراع ثم يبدو على ظاهر الكيان أن هنا إنسانا ملؤه التوافق والانسجام .

والمفروض أن الانسان يحكم داخله أكثر مما يحكم خارجه وهو في واقع الأمر لا يحكم على الحالين إلا كما تحكم الذرة التافهة حركتها في أشعة الشمس !

وإذا كان من الحق أن تعيش الذرة أو الانسان على أي حال من الرضى أو السخط ومن القلق أو الطمأنينة مادامت الحياة قدرا ينتظمها كملايين المخلوقات فان من الحق ألا يعيش الانسان بعض التفاصيل كالكتابة إذا لم يكن في مقدوره أن يعيشها كما يجب .. وكيف لايغدو في وسعه أن يكتب كما يحب وفي ثيابه عدد من الأشخاص كالوزير والانسان العادي والأديب وغيرهم ممن يمكن تصورهم بهذا المعنى أشخاصا متمايزين لأي معنى أو صفة في محتوى هذا الانسان ؟!

كيف يكتب شخص ما من هؤلاء الأشخاص في معزل عن الآخرين وكأنما لا وجود لهم عندما يكتب ؟

إن كل شخص أعيشه — على افتراض تعدد الشخصيات — يذوب في داخلي كما يذوب في الكأس عدد من العناصر .. لكل منها قبل الكأس كيان مادي أحسبه أكثر وضوحا وتمايزا مما يدعيه الانسان لنفسه أو للآخرين باسم « تعدد الشخصيات » .

ودار في ذهني أنه مجرد افتراض أو اصطلاح لتبرير سلوك الانسان وتصرفاته الحسنة أو السيئة فما هنا هنا عدة « شخصيات » بل عدة أفكار قد تتخاصم إلى حد القتال غير أنها تتحول إلى ذوب واحد في داخل النفس ثم قد يطغى أحدها ويحكم تصرف الانسان ومزاجه كما يطغى عنصر بذاته على ما عداه في الكأس أو في ذوق الشاربين .. وعندها يقال :

إن شخص « الوزير » مثلا قد طغى أو استبد بشخص « الأديب » أو أن شخص « الرجل العادي » هو الذي ينبغى أن يظهر في مواجهة قصة ما دون شخص « الوزير » إلى غير ذلك من الشخصيات التي يحتويها الناس كلهم أو بعضهم بحسب الأحوال والمقام : والمفروض أن يغمس الشاعر أو الكاتب قلمه في ذوب الانفعالات التي يعيشها وأن ينقلها إلى الورق كما هي ...
وهذا يستدعي أن يعي حق الوعي مايريد أن يقوله لئلا يقول كلاما طائشا أو تافها أو غير مفهوم وأن يكون قادراً بالموهبة ثم بوسائل ابرازها على الأداء الملائم !

ومما لاشك فيه أن الافتعال أمر ممكن وقد يتقن الكاتب أو الشاعر أداءه ويبلغ به مستوى قد لايبلغه من يحاول أداء انفعال صحيح صادق لا افتعال فيه !!

أبو نواس — مثلا — كان يروي انفعالاته على حقيقتها دائما أو غالبا ومع هذا لم يكن مستواه كالمستوى الذى ارتقى إليه أبو الطيب المتنبى رغم كل افتعال في معظم شعره الذي أصبح أغرودة خالدة كما قال !

ومع هذا أيضا يلوح المتنبي في شعره الذي كان يصدر عن انفعال كقصائده عن سيف الدولة — أقوى وأحسن منه في شعره الذى افتعله عن كافور كما حدث هو عن نفسه بعد الافتعال ويأسه مما كان ينشده بالافتعال !!

إن القدرة الفنية بما فيها الموهبة تلعب دورها فى رفع أو خفض مستوى التعبير على كل حال من الانفعال والافتعال غير أن هذا يظل مرجوحا في ذوق أهل الانفعال وطلابه على حقيقته وإن ارتفع مستوى الافتعال أو تألق كما يتألق الكذب والنفاق !

وعلى أي حال من هذا وذاك واحتمالات الجدل فيهما وفي مستوى الكتاب والشعراء بينهما يلوح أن المزاج وحده هو الذى يختار أحد الطريقين .. ولا يعني الاختيار التفوق إلا لمن يغتر وينسى أن الفشل والضعف والركاكة احتمالات جائزة !!

ولكنه يعني مزاجا يكره أو لا يكره الافتعال !

إنني أحب أن أكتب انفعالاتي كما هي .. لا أتصنعها .. ولا أتصنع لها ما استطعت فكيف أكتب انفعالات عدد من الأشخاص يحتويها كائن واحد .. هو أنا .. والمفروض أن انفعالاتهم جميعا تتحول إلى ذوب واحد في داخلي وأن قلمي يغمس في هذا الذوب وينقل إلى الورق شيئا منه لا من ذوب مفتعل ؟!

كيف أعزل شخص (الوزير) وأدفعه بعيدا عن قلمي وهو يملؤ انفعالاتي بين دوامة العمل ومن أتعامل معهم ويتعاملون معي .. على اختلاف نوعية ومستويات العمل والمتعاملين ؟!

كيف أخنق انفعالات كهذه لأكتب عما أحسه في هدأة الليل أو في صحوة الفجر ، أو على صوت السكون وخرير المياه .. أو هدير الأمواج أو أي تجليات تبثها الطبيعة في النفس وهناك انفعالات أخرى تملؤني ولا تكاد تبرحني إلا إذا سكنت أطرافي على ما يشبه النوم ؟!

ولو أخذت أكتب على الطبيعة كما يقال لما سلمت ــ والقلم في يدي ــ من صداع طويل !

إن شخص (الوزير) مثلا سيرفض كلمات أو عبارات أو انفعالات بعينها لأنها مما لا ينبغي أن يصدر عن (الوزير) في نظر الآخرين وسيقف شخص الكاتب في وجهه قائلا :

ــ دعه يكتب ما يحسه على حقيقته .. ويرد شخص الوزير :

ــ إن هذا لا يتفق مع وقار (الوزير) أو إطاره على الأقل ثم إن الناس أو

بعضهم على سبيل المثال قد يقول إذا كتبت نقدا :

لو لم يكن « وزيرا » لما تطاول إلى هذا الحد .. أو لماذا لا يصحح الوضع وهو المسئول ؟ مع أن تصحيح الوضع ــ والوعي في مقدمته ــ قد يستعصي على المسئولين أجمعين إن لم يكن من الله عون لهم .. ومن عباده المخلصين !

وإذا كتبت أفكاراً يومية أعيشها فقد يلوح بعضها تافها في نظر بعضهم .. أو لا ينسجم مع هالة الأطار الذي يعيش فيه حامل أثقال اسمه (الوزير) كما سبق .

ويرد شخص الكاتب عليه في الحال بقوله : اسكت .. دعهم يقولون ما شاءوا ويشاؤون دعهم يقولون ــ كيف يكتب كلاما عن النمل مثلا أو الضفادع أو أية حيوانات أدنى أو أعلى إذا تحرك شعوره بها فى أي اتجاه .. ؟ أو كيف يكتب عن ظاهره أو باطنه .. جميله أو قبيحه .. أو عن عاطفة بذاتها كالحب أو الاستلطاف أو الدهشة أو الاستخفاف .. إلى آخر ما يطيب للمزاج الفني أن يصوره بلغة العاشقين أو الناقدين أو الساخرين .. كانفعالات يومية يعيشها بين الليل والنهار .. ويطول الجدل بين (الوزير) و (الكاتب) ثم قد يشترك شخص ثالث معهما في الحوار ان تغلب الكاتب وضغط قلمه ليكتب خواطره أو يومياته كما هي بدون أية مواربة أو غطاء .. ذلك هو (الشخص الطبيعى) الذى يحاول المواءمة عادة بين ما ينبغي وما لا ينبغى مسترشداً في ذلك بكل ما مر به وبالآخرين من تجربة واعتبار !

إنه يتدخل حينئذ ويقول بهدوء :

ــ لا ينبغى أن يذكر الانسان كل شيء وكل حدث وكل قصة ــ إن هناك ما ينبغى ستره كعورات النفس والسلوك وإن زعم بعض من كتبوا عن حياتهم ويومياتهم : انهم كتبوها كما هى ..

لقد زعم شيئا كهذا (جان جاك روسو) الكاتب الفرنسي المعروف عندما كتب عترافاته وقال : انها تحدثت عن كل شيء في حياته بمنتهى الصدق

والصراحة .. لكن بعض النقاد زعموا في مواجهة اعترافاته : إنها لم تستوعب كل شيء وأن هناك ما ستره ولم يذكره في الاعترافات وهذا معقول فما ينبغي أن يكتب الانسان كل شيء إلا إذا كان (بوهيميا) أو شيئا ممن يدعون (الخنافس) أو (الهيبز) آخر صرخة في رقي الانسان !

ويظل القلم صامتا في هذه الأثناء ..

وقد ينتصر شخص ما لعله الرابع أو الخامس باسم الارادة .. لا يبالي أن يكتب عن انفعال بعينه ويتجاهل انفعالات أخرى تطل على الفكر وتدور في النفس وتكاد تسبق القلم .. كيف أخنقها ليكتب القلم ؟ .

وأشعر حينئذ أن التعب ـــ ولعله شخصية سادسة ـــ أقوى من إرادتي بعد كل هذا الحوار وصداعه الطويل !!

وقد أتغلب على التعب باسم إثبات الذات ـــ على حد تعبير أخينا العمير ـــ وإن كانت الدنيا عندي أهون كثيرا من محاولة إثبات الذات فيها إلا بما يحسن به مصير الانسان بعدها .. وهذا لا يتطلب إثبات الذات بل قد يتطلب نكرانها !!

وتفويض الأمر لله .. ولرحمته .. إلى الأبد !!

ولكن الوقت بعد كل هذا الحوار والتعب والتغلب عليه لم يعد فيه متسع لمحنة الفكر والقلم وهي على أشدها أحيانا ، وهناك متطلبات الغد مما ينبغي أن أضع نفسي من أجله على فراش النوم أو في أي وضع مريح ما أمكن لمعايشة الغد ومتطلباته .

وقد أطرح الخمول جانبا .. وليكن ما يكون من أمر الغد ، والنشاط المكدود فيه بعد سهر أو جهد يطول أو يقصر مع القلم ، والحرف ، والأفكار .. وأكتب أي انفعال يظل يؤرقني حتى أضعه على الورق !

وأفكر بعده في النشر ، فان الحرف المطبوع أدعى لاثبات الذات !

وإذا هو غالبا بعد النشر شيء مسخته المطبعة ، جملة بأسرها سقطت من أول
الكلام أو خلاله .. وكلمات طبعت في سطر آخر ، محرفةإلى ما يعطي غير أو
ضد المعنى المقصود .. وعبارات لا تبين من رداءة الطبع .. إلى آخر ما قد
يتحول معه إثبات الذات إلى إثبات كلام معقد ، أو تافه ، أو غير مفهوم ..

وأخيرا لا آخرا .. أعود لحساب الزمن .. لا أكاد أجده إلا كما أجد الماء في
كفي من جدول كالسراب في صحراء !

وعلى سبيل المثال هذا الكلام .. أو هذه الثرثرة .. لقد كتبت جزءا منها في
أشهر بعده .. مع أنها انفعالات مكتوبة في داخلي ، وكل ما سنحت الفرصة
لأكتبها طرأ ما يلغيها في الحال .. حتى انقطعت لها آخر الأمر ، وأفرغت ما تبقى
منها ، أو بعضه على الأصح ، فما زلت أشعر بأن في النفس بقايا .. ولكن
التعب قد أدركني حقا ، وأشعر مقدما بما قد يحسه القارىء — نتيجة الفصل بين
فترات كتبت فيها هذه الثرثرة — من فقدان التوازن أو الانسجام بينها !

كما أشعر أيضا بما قد يقال عنها أو عن بعضها على نحو ما أسلفت .. أو بما
قد يثار بعدها من تعليقات إذا كانت فارغة فسأتركها كما تركت وأترك مثلها
للهواء ، وإلا فقد أحاول أن أكتب جهد المستطاع .. أو أصمت .. والصمت
خير في الأغلب الأعم ، بل أن لي اقتراحا قديما يعرفه بعض الأصدقاء ، وهو أن
تعقد مؤتمرات للصمت ، بعد أن جرب العالم مؤتمرات لا تكاد تحصى للكلام
ثم لم تحسن نتائجها كما ساءت إلا ما رحم ربك !

مؤتمرات للصمت .. وفترات يتفق الناس عليها وعلى الصمت فيها .. لعل هذ
أحسن وأدعى للخير والسلام !

ولا أدري كيف تجري أحداث صمت كهذا .. أو مؤتمرات وفترات كهذه
كما قد يدري ذلك خيال قصصي بارع لا يضيق بأي اتهام عقلي يسدد إليه من
علماء الكلام !!

البلاد ١٣٩٤/١٠/١٢ هـ

معالي الوزير أيضا

أعترف سلفا أن رغبتي الجارفة في التعليق على مقال أستاذنا محمد عمر توفيق « معالي الوزير » المنشور يوم الأحد الماضي لا تنبع من حرص على فائدة للقراء بالضرورة كما أنها بالتأكيد ليست من قبيل ملء الفراغ فما أكثر ما يمكن أن يفيد القراء ، وما أكثر أيضا ما يمكن أن يملأ الفراغ !

ولكنها رغبة تشبه النشوة ، أو استخفاف الطروب .. فلقد قرأت المقال أكثر من مرة ومرة ، قراءة استمتاع ، وقراءة استفادة وتمعن .. ثم قراءة تصحيح تجارب الطبع مع أن التصحيح ليس من الأعمال التي أتقاضى عليها أجري الشهري ، وإنما هى الحفاوة بالمقال ، دفعتني إلى الحرص على تصحيحه بنفسي ، أو لعله التحسب لإرضاء أستاذنا الكريم ، خاصة ، وأنه قديم الشكوى من الأخطاء المطبعية .. بل أنه أشار إلى مثل ذلك في صلب المقال نفسه !

ويعلم الله أنني فى كل مرة أقرأ المقال ، من كل تلك المرات المتعددة ، أجد نشوة جديدة ، ومتعة أجد !

وأعترف أيضا أنني رغم نشوتي واستمتاعي كنت أبحث بغير قليل من اللؤم عن أية فجوة في تماسك الأسلوب ، أو عن أية كلمة في غير موقعها ، أو أية فكرة (ليست على قد المقام) ! فلا أجد !

ولكن من حسن حظ جانب اللؤم في نفسي أن المقال مقال فلسفة بالدرجة الأولي .

والفلسفة عادة تبحث عن الحقيقة بأدوات قوامها الجدل ، والمنطق ، وصنعة البلاغة والبيان ، وقوة العارضة في الحجة ، وسرعة البديهة ولطفها في إيراد البرهان !! وبقدر ما تكتمل هذه الأدوات أو بعضها عند كاتب ما ، لابد أن

تصبح الحقيقة في خطر ، أو أن تصبح ــ على الأقل ــ ذات وجهين كالعملات النقدية !

ومن هنا شعرت ــ لعله بواعز اللؤم ! ــ أن أستاذنا لابد قد أخفى أو داهن نفسه في بعض جوانب الحقيقة .. أو فى أحد وجهيها ، وخاصة في تبريره لعدم إمكانيته الكتابة كما يحب ، طالما يجمع في اهابه عدة أشخاص منهم « معالي الوزير » و « الانسان الغادى » و « الأديب » !

وقد ذهب في هذا التبرير مذاهب شتى ، استخدم فيها كل أدوات وأسلحة الجدل ، والفلسفة ، والمنطق ، والبلاغة ، والبيان ، والحجة ، والبرهان !

وأقل ذلك .. بل أدنى ذلك يمكن أن يعصف بأعتى الحقائق ، ويجعلها عجينة لينة مطواعة يشكلّها الصانع كيف يشاء !!

وإلا كيف يريد أستاذنا الفاضل .. بل كيف يمكنه أن يقنعنا بدون ذلك أن الكتابة بالنسبة له مستحيلة لأنه لا يستطيع أن يكتب كما يحب لسبب تعدد الشخصيات في ذاته أو إهابه .. فهو ــ على حد عذره أو حجته ــ إذا كتب بسجية الأديب وعفويته وسماحة خواطره ، لابد أن يتعارض ذلك على نحو أو آخر مع اطار أو وقار « معالي الوزير » .. ليس ذلك فحسب .. بل كيف يمكنه أيضا أن يتجاهل أو يغفل انفعالات ومشاعر « معالي الوزير » عندما يكتب خواطره أو انطباعاته أو انفعالاته ، وهي ــ أي انفعالات ومشاعر معالي الوزير ــ تملأ عليه نفسه أكثر وقته تقريبا مع من يتعامل معهم أو يتعاملون معه ؟! .

وإذا أراد ــ مثلا ــ أن يكتب عن هذه الانفعالات .. فهل يستطيع ؟

أنه إذا انتقد مثلا ، قيل عنه ، ولماذا لا يصحح الخطأ وهو المسؤول ؟ إلى آخر ما يمكن أن يثار على هذا النحو !!

وهذه التبريرات كما يرى القارىء على غاية من الوجاهة ، وخاصة في مواقعها من مقال « معالي الوزير » .. أما هنا فهي تلخيص ، أفقدها لاشك رونقها !

ولكن .. ولكن ليس الأمر بالضرورة كما أراده منطق أستاذنا الكريم فللحقيقة وجه آخر في المنطق الفلسفي ـــ كما أسلفت ـــ !

* * *

إن الأساس الذى بني عليه أستاذنا الكريم كل تبريراته الرائعة تلك ، إنما هو رسالة متواضعة كنت وجهتها إليه على هذه الصفحة وخلاصتها أن الميدان الأدبي افتقد واحدًا من أبرز فرسانه هو الأستاذ محمد عمر توفيق ، وخاصة بعد أن اندمج أو ذاب في شخص « معالي الوزير » ومسؤوليته واطاره ووقاره فلم نعد نظفر منه ـــ أي من الأديب محمد عمر توفيق ـــ بكلمة شائقة مجنحة ، ولو من قبيل الـ « ذكرى » !

وكلمة « ذكرى » إشارة رامزة إلى الزاوية الناجحة التي كان يكتبها فى هذه الجريدة يوميا بعنوان (ذكرى) !!

وقلت في رسالتي تلك أن معالي الوزير محمد عمر توفيق قد ظلم الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق حيث استأثر الأول بالأضواء والمجد والعمل ، ولم يترك فرصة قط للثاني !

وقلت : إن هذا ظلم فادح لاشك فيه !!

والتمست في النهاية من « معالي الوزير » في شخص محمد عمر توفيق أن يرأف بالأديب في شخصه أيضا وأن يحترم له قدر الأسبقية على الأقل فيتركه ولو هنيهات من الوقت يثوب إلى كتبه وفكره وقلمه فنظفر نحن القراء ولو بأيسر ما يظفر به سائر المواطنين من جهود وزارة المواصلات !!

* * *

ذلك هو ملخص الرسالة التي استطاعت ـــ رغم تواضعها ـــ أن تنتزع أديبنا الكبير من بين براثن مسؤوليات وزارة المواصلات وأكوام التقارير عن الكباري والجسور ، وعرض أكتاف الطرق والموانيء والسكك الحديدية ، والمواصلات السلكية واللاسلكية والبريديه[1] وإلى آخر القائمة الطويلة العريضة من المسؤوليات

---

(١) كل هذه كانت من مسؤوليات وزارة المواصلات قبل إيجاد وزارة البرق والبريد والهاتف أو مؤسسة الموانىء .. الخ .

التي تفترس أديبنا الكبير كل يوم ، وذلك فضلا عن الاجتماعات والمقابلات والصبر والأناة على المراجعين وطلاب الحاجات !!

كل هذا نعرفه ونقدره ، ومن أجله كان اعتزازنا كبيرا بمقال « معالي الوزير » حيث استطاع أن يكتبه في غفلة من كل تلك الأسلاك الشائكة !

ومعنى هذا أن الأديب محمد عمر توفيق يستطيع — ولو أحيانا — أن يتخطي الأسلاك الشائكة ، وتقارير الكباري والجسور ، ويكتب شيئا يجدد (ذكراه) في نفوس محبيه ومريديه من أهل الأدب وعشاق الحرف .. وذلك ما أردناه بالضبط من رسالتنا !

★ ★ ★

ونعود إلى التبريرات الآنفة الذكر ، والتي أوردها أستاذنا بأسلوبه المجنح ، ومنطقه المقنع ، وحججه التي يعرضها بزخرف وبهرجة تبدو معها وكأنها الحق كل الحق ، وكأن الباطل لا يمكن أن يأتيها من بين يديها أو من خلفها وذلك هو إعجاز البيان !

ولكن إذا نظرنا إلى كل تلك التبريرات بمقياس أو ميزان لا يتأثر بزخرف اللفظ أو بهرجة الأسلوب لوجدنا أنها قابلة للنقاش والأخذ والرد ، شأنها شأن كل فكرة فلسفية أو صنعة أدبية !!

يحتج أستاذنا بأنه لا يستطيع أن يكتب كما يحب انفعالات ثلاثة أشخاص أو أكثر فى إهابه « معالي الوزير » و « الأديب » و « الانسان العادي » لأن هذه الانفعالات من التضارب بحيث تصل إلى حد الصدام أو القتال ، ومنها ما يصلح للكتابة ومنها ما لا يصلح لاعتبارات الوقار أو غيره !!

والواقع أن أستاذنا الكريم خير من يعلم أن ليس كل الإنفعالات صالحة

للكتابة ، وأن الأديب لا يستطيع أن يعبر عن كل انفعالاته وخلجاته مهما أتيحت له من فرص حرية البوح أو التعبير .

وأستاذنا يعلم أن الإنفعالات التي تجيش في نفس « معالي الوزير » من جراء حسن سير العمل في الوزارة أو خلله أو نحو ذلك من المضايقات أو الارتياح إنما هي انفعالات أو مشاعر وقتية شبه آلية تدور مع دورة الدم ثم تذهب بقدر السرعة التي يمكن بها معالجة أسباب ذلك الانفعال ، وهي غالبا سرعة ميسورة ، وخاصة لأمثال معالي الوزير وحتى لو كانت انفعالات الوزير أعمق من تقديرنا هذا في بعض الأحيان فان ما يصلح منها للكتابة الأدبية ، لا يترسب في نفس معالي الوزير ، وإنما تدخل أو تنصهر أو تذوب فورا في دائرة الوعي أو اللاوعي « العقل الباطن » فى نفس الأديب وليس غيره إذ لو كان الأمر غير ذلك لأصبح كل وزير أديبا .. بل لأصبح كل إنسان عادي أديبا أيضا ! مادامت له انفعالاته أيضا !

أما انفعالات الأديب فهي من طراز آخر منها ما هو مقتصر على الأديب بذاته ، ربما تثيرها جملة في كتاب ، أو عبارة في مقال ، أو شطر بيت من الشعر ، أو حتى منظر رفوف المكتبة ، وبعض هذه الانفعالات لابد أن تثير ومضات خواطره فتؤرقه ليله حتى تدفعه إلى البوح دفعا !!

ومن ذلك مثلا أن أستاذنا نفسه ، لم يكتب مقالا أدبيا واحدا منذ سنوات لا لشيء إلا لأنه قد انغمس في انفعالات لا تمت بصلة إلى الانفعالات المثيرة للأدب والأدباء .

ولكن رسالة صغيرة متواضعة في صفحة أدبية ، أثارت في نفس أستاذنا من الانفعالات ما لم تفعله آلاف الصفحات من تقارير ومعاملات وزارة المواصلات !!

وهذا وحده يدلنا على أن الانفعالات التي تدفع الأديب إلى تناول قلمه ، وبسط أوراقه ليست هي سائر الانفعالات التي يعانيها الانسان كل يوم .. على أن الانفعالات اليومية ، سواء كانت انفعالات « معالي الوزير » أو أي إنسان

عادي ، يمكن أن تكون انفعالات صالحة للكتابة ولكن بعد أن تذوب وتترسب في أعماق الوعي أو اللاوعي .. ثم لابد أن تطفو على السطح يوما ما في سياق مقال أو فصل قصة أو أبيات شعر أو أي عمل أدبي !

وهذا هو بالضبط ما أشار إليه الأستاذ محمد عمر نفسه في مقاله « معالي الوزير » عند ذكره العناصر المختلفة المتمايزة التي توضع في الكأس فتذوب في بعضها لتصبح عنصرا واحدا بذاته !

أفليست انفعالات « معالي الوزير » و « الانسان العادي » و « الأديب » في شخص محمد عمر توفيق يمكن أن تنصهر فتصبح ذوبا واحدا صالحا للاغتراف الفني والأدبي ؟

أليس هذا من ذاك .. ؟ فما معني إذن حيرة أستاذنا الكبير فيما يأخذ أو يدع من انفعالات تعدد الأشخاص في ذاته ؟!

★ ★ ★

وأثار أستاذنا نقطة مهمة في مقاله ـــ وكل مقالة من الأهمية بمكان ـــ هي مدى إمكانية الأديب أن يسجل كل انفعالاته أو انطباعاته بخيرها وشرها ، جمالها وقبحها مما يمكن أن يدخل في إطار الانفعالات ، وأشار في سياق ذلك إلى اعترافات « جان جاك روسو » التي زعم ـــ أي روسو ـــ أنها اعترافات كاملة صادقة صريحة ، ولكن النقاد زعموا أنها ليست كذلك تماما ، وهذا معقول ، كما قال الأستاذ محمد عمر توفيق .

وهاهنا ـــ كما يعلم أستاذنا ـــ مسألة خلاف كبير بين مفهوم الاعترافات عند « جان جاك روسو » وأمثاله ممن يدينون بالمسيحية ، وعند « محمد عمر توفيق » وأمثاله ممن يدينون بالاسلام !!

الديانة المسيحية تشجع على « الاعتراف » وهو ضرب من « الغفران » عندهم ، ولكن رغم ذلك يجب ألا يكون الاعتراف علنيا .. بل يقتصر أو

ينحصر بين المعترف وكاهنه في الكنيسة ، ولا ينبغي أن يصل إلى حد النشر والبث كما فعل روسو وغيره .

أما في الاسلام فان القاعدة الذهبية في هذا الشأن وأمثاله هي « أن الله لا يحب الجهر بالسوء» و « إذا بليتم فاستتروا » فرسالة الأدب في الاسلام إذن هي رسالة الجمال والحق والخير وكل مثل سام أو خليقة فاضلة ، أي بعيدا تماما — كما يعلم أستاذنا — عن كل ما يروجه المروجون من دعاة « فرنجة » الثقافة العربية باسم الصدق الفني أو الاخلاص للحقيقة أو نقل الوقائع كما هي بصرف النظر عن جمالها أو قبحها ، وبصرف النظر عن مدى ما تتركه من أثر حسن أو سيء !!

وهم — في الغرب — قد ذهبوا مذاهب شتى في هذا الفن أو المسخ إلى حد أنهم لا يتورعون عن ذكر الألفاظ القبيحة الداعرة ، والصور الشنيعة الفاضحة .. وكل ذلك ليس في شيء من جمال الأدب وسموه وترفعه !!

ورغم ذلك فان الاعترافات التي يزعمونها ويروجونها ويبثون الدعاة لها في الشرق والغرب ليست اعترافات صادقة بقدر ما هي أحابيل أو وسائل شريرة لنشر الفجور والغواية والقبح الفني !!

وعلى كل هذا ينبغي للأديب — وخاصة الأديب المسلم — أن لا يأخذ من انفعالاته ومشاعره ووقائع حياته أو حياة غيره بقصد العمل الأدبي أو الابداع الفني إلا ما كان تصويرا لجمال أو دعوة لخير أو تقويما لاعوجاج أو نقدا لشذوذ .. أو حتى لاشاعة وبث المتعة الفنية الخالصة في نفوس قرائه !!

وأما ما عدا ذلك من الانفعالات والمشاعر فهي بين أمرين .. إما أن تكون انفعالات ومشاعر آنية تذهب بذهاب أسبابها ولا يبقى منها ما يصلح لقوام عمل أدبي أو إبداع فني ، وإما أن تكون مشاعر وانفعالات خاصة جدا أي من النوع الذى يحسن السكوت والتستر عليه ليبقى صونا بينه وبين ربه حتى يوم يبعثون !!

★ ★ ★

ولابد أن نخلص من هذا كله لنطرح التساؤل التالي :

على هذا الأساس ، كله أو بعضه ، ماذا نريد من الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق على رغم كونه وزيرا أو شخصا عاديا أو غير ذلك من الأشخاص في ذاته ؟

سؤال يمكن أن نجيب عنه بسؤال آخر ــ على طريقة سقراط التي أشار إليها أستاذنا فى مطلع مقاله :

هل تعدد الشخصيات فى ذات انسان أديب .. تشكل عائقا دون ممارسة وجوده الأدبي .. أم هي ــ أى الشخصيات المتعددة ــ تشكل رافدا أو روافد جديدة لمنابع الاغتراف الأدبي والفني ؟!

أعتقد أنه لو اعتذر أستاذنا عن الكتابة بكثرة المشاغل لا بسبب تعدد الشخصيات لكان الأمر أدعى إلى بعض القبول .

ولكن حتى هذا العذر الوجيه لابد أن يجعلنا نتساءل ــ إذا أردنا الاسراف في اللؤم ــ على هذا النحو :

وشخص الأديب في ذاته .. أليس له مسؤولياته أيضا .. فلماذا كل هذا التقاعس عن ممارستها ؟!

كيف يبيح لأي شخص من الشخصيات المتعددة في ذاته ــ مادام هذا قدره ــ أن يطغي على الشخصيات الأخرى ويستبد بها ويستأثر دونها بمقومات الحياة وإثبات الذات ؟

وعلى ذكر « إثبات الذات » .. لقد قال أستاذنا في مقاله أن الدنيا كلها أهون عنده من أن يحاول فيها إثبات الذات ، وكان يقصد الذات الأدبية .

أتراه يمكن أن يقول أن الدنيا أهون عنده من أن يحاول فيها إثبات الذات فيمالو كان الأمر يتعلق بذات الوزير في شخصه ؟!

إن ذات الوزير تفرض عليه فرضا أن يحاول إثباتها بمختلف الوسائل المشروعة

لكي يضمن لعمل الوزارة حسن سيره ، وللمسؤولية هيبتها اللازمة لردع من يستحق الردع ، ومكافأة من يستحق المكافأة !

فكيف إذن تهون عليه الدنيا دون إثبات ذاته الأدبية ، ومسؤولياتها ربما لاتقل عن مسؤولية الوزير في خدمة الأمة والوطن ؟ وإنما هو يقصد ـــ لاشك ـــ أن تواضعه لا يمكن أن يدفعه إلى ممارسة الوجود الأدبي لمجرد إثبات الذات ، خاصة وأن ذاته هذه ثابتة راسخة على كل حال ، وكل ما هنالك أنها تحتاج إلى بعض التعهد !!

وذلك بالضبط هو ما قصدته أو استهدفته من رسالتي .. بل استهدفت أيضا أن للقراء والأدباء حقوقا في ذمة ذات الأديب محمد عمر توفيق كما لسائر المواطنين حقوقا فى ذمة الوزير فما باله ينصف ذمة الوزير ، ويهمل ذمة الأديب ؟؟

ذلك هو السؤال .. أو تلك هي المسألة !

وبعد فإن مقالي هذا ليس ردا أو حتى نقاشا وإنما هو بعض تنفيس عن كوامن حب ، ودفائن شوق ، وبواعث تجلّة واحترام وتقدير لأستاذنا « الأديب » محمد عمر توفيق ليس إلا !!

جريدة البلاد ١٩/١٠/١٣٩٤ هـ





مع الأستاذ عزيز ضياء !

كنت أحظى ـ منذ زمن ـ بتشجيع أستاذنا الكبير (عزيز ضيا) .. وكنت قد انقطعت عن الكتابة عدة سنوات ثم عدت إليها عبر زاويتى اليومية فى عكاظ (تحت الشمس) ثم بعض المقالات في (عكاظ) نفسها أو في غيرها من صحفنا ومجلاتنا .. وصادف أن تكون زاويتى (تحت الشمس) في الصفحة نفسها التى تضم زاوية أستاذنا الكبير ، ذات العنوان (نشر وطي) فكأنه كان يتحين الفرصة للترحيب بعودتي للكتابة وتشجيعي من جديد كعادته معي دائما .. فما هو إلا أن نشر مقالا لي بعنوان (المعري فى ضيافة الفارسي والقصيبي) حتى وجد فيه الأستاذ فرصة مناسبة للتعبير عن مشاعره الكريمة حين خصني بحلقة كاملة من زاويته .

وفيما يلي مقالي المذكور .. ثم مقال الأستاذ عزيز ضياء .. ثم ردي عليه بالشكر الجزيل .



المعري في ضيافة الفارسي والقصيبي

كنت أتصفح قبل أيام مجلدا إحصائيا ضخما .. وكان من ضمن تلك الاحصائيات العديدة ، إحصائية خاصة باستهلاك مختلف مناطق المملكة من اللحوم .. استوقفتنى إحصائية اللحوم هذه .. وأذهلتنى حقا .

ألوف مؤلفة من الابل والأبقار والأغنام التى تم ذبحها في فترة زمنية محدودة .. ولم تأت الاحصائية على مقدار ما ذبح من الطيور أو الدواجن أو الدجاج لأنها ــ دون شك ــ فوق أي حصر .. كما أن الاحصائية لم تأت أيضا على ذكر اللحوم المستوردة الجاهزة .. وهى ربما أكثر مما يذبح هنا .

وعندما ألقيت بالكتاب الاحصائي جانبا .. لست أدري كيف تذكرت فيلسوف المعرة (أبو العلاء المعرى) وكيف لو أمكنه الاطلاع ــ في زمنه ــ على احصائية كهذه .. كان يموت ــ حتما ــ لفوره من الكمد والغيظ .. وكيف لا يموت كمدا وغيظا من مثل هذه الاحصائية المهولة ، وهو الذي كان في مرض خطير فوصف له طبيبه (مرقة ديك) فوافق على ذبح الديك ــ وكانت تلك مسألة عظيمة عنده ــ ولكن عندما جاءوه بالديك ومرقته .. نظر إليه ملياً .. ثم قال قولته المشهورة : (استضعفوك فوصفوك .. هلّا وصفوا شبل الأسد) .

لقد استكثر في النهاية ذبح ذلك الديك المسكين .. وكم أتمنى لو يبعث من قبره فيزور مزارع فقيه ــ مثلا ــ أو يقرأ فقط هذه الاحصائية التى قرأتها .. والتى هى ليست عن دجاج مزارع فقيه أو غيرها .. بل عن الابل والأبقار والأغنام والأعداد الهائلة المروّعة التي تذبح منها .

أتمنى حقا أن يبعث أبي العلاء حيا .. وأن يصادف أول من يصادف عند

بعثه ، محمد سعيد فارسى أمين مدينة جدة .

ولابد — عند ذلك — أن يستضيفه الفارسى بالضرورة .. ولابد أن يأخذه معه بسيارته في اليوم التالى ليطوف به على أنحاء جدة .. ليشهد معالمها الحضارية الحديثة التى لن يهتم بها (المعرى) كثيرا .. ولكن الفارسي سيبالغ حتما في اكرام ضيفه فيذهب به إلى (مسلخ جدة) ليريه إياه كمعلم حضاري !!

وسوف لن يدرك الفارسي مدى الخطأ الذي ارتكبه — دون قصد بالطبع — في حق ضيفه إلا بعد أن يجده مغمى عليه .. ثم لا يفيق إلا في أحد مستشفيات جدة ..وليكن مستشفى الدكتور سليمان فقيه حيث اشتهر هذا المستشفى باستقبال الأدباء استقبالا حسنا .. فكيف بأبي العلاء المعري ؟

لاشك أن الدكتور فقيه سيطير فرحا بمريضه .. وفي غمرة فرحه سينسى حتما ويأمر بشوربة دجاج ، ومعها فخذ ديك .. وربما حمل ذلك بنفسه إلى أبي العلاء .. زيادة فى التكريم .

ولابد أن يحدث الكثير من الهرج والمرج في المستشفى نتيجة لهذا الخطأ الفادح الذى ارتكبه الدكتور فقيه ..

ثم لابد أن أعلم أنا بوجود أبي العلاء .. ومن ثم لابد أن أذهب لزيارته .. ولكن سأحمل معي ذلك الكتاب الاحصائي .. وعندها فقط سأنقذ الفارسي وفقيه معا .. لأنه سيعود من فوره إلى قبره إذا اطلع على بعض ما اطلعت عليه من احصائيات اللحوم .

★ ★ ★

حتما ستعلم الصحف بكل ما حدث .. وستنشر تلك الأخبار بصورة مثيرة .. وسيعلم بالطبع الدكتور غازي القصيبي فيهرع إلى جدة سريعا (لتقصى الحقائق)[1] ولكنه سيعلم أن المعري قد عاد إلى قبره بسببي أنا كاتب هذه السطور .. لا لشيء إلا لأننى أطلعته على جزء من الحقيقة !

---

(١) ما بين القوسين من التعبيرات السياسية الشائعة !!

سيضرب القصيبي كفا بكف .. وهو يلومني على تصرفي ذاك .. ولكنني لن أتركه يستمر في لومه لي .. حيث سأذكّره فورا أن (أنيس منصور) يستطيع تحضير الأرواح .. وإن كان قد اقتصر نشاطه — في الفترة الأخيرة — على تحضير أرواح الصهاينة فقط .. وليس المعري منهم .. وهذه مشكلة .

(ولكن كل مشكلة لها حلال) كما يقول العامة !

ومن السهل جدا ، وبمجرد حفنة من الريالات .. يمكن اقناع (أنيس منصور) باستحضار روح أبي العلاء .. وبزيادة قليلة في حفنة الريالات .. يمكن أن يبعثه حيا (!!) وليس روحه فقط !!

وعندها يمكن اجتماع القصيبي بأبي العلاء .. فيعتذر له عما بدر من أخطاء غير مقصودة سواء من الفارسي ، أو من فقيه ، أو من العمير .. ثم ينشده بعض شعره في الزهد والتقشف فتنتعش روح أبي العلاء .. ويأخذه الدكتور القصيبي ليريه — قبل كل شيء — مقبرة (أمنا حواء) فتزداد روح أبي العلاء انتعاشا فينشد من شعره :

(خفف الوطء .. فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد)

ثم لابد أن يتساءل المعري مخاطبا القصيبي :

هيه .. يا بني .

ماذا فعل الله بالشعر من بعدي ؟

فيقول له القصيبي :

بشراك يا عم .. الشعر عندنا بألف خير .. سواء الشعر التقليدي .. أو الشعر الحر !!

فيقول له المعري :

وما الشعر الحر يابني ؟

فيقول له القصيبي :

هو ـــ ياعم ـــ شعر مستحدث .. ولكن دعنا منه الآن فانني أخشى أن يغمى عليك أو تعود إلى قبرك .. ودعنا من الشعر التقليدي فانه عندنا ـــ في هذه الأيام ـــ كفيل بأن يجعلك ـــ لو سمعته ـــ في عداد أبطال (رسالة الغفران) .

تعال نذهب إلى الطائف المأنوس حيث هناك وفرة النباتات والحشائش التى يمكن أن (نعزمك) منها !

وعلى ذكر النبات والحشائش .. لابد أن أتحفك ـــ ياعم ـــ بطرفة لطيفة تسرّي عنك .

أنت ـــ ياعم ـــ رجل نباتي ... وتحب النبات والنباتيين وأبشرك أنه كان إلى عهد قريب في لبنان أحد النباتيين المشهورين .. اسمه (كمال جنبلاط) من الزعماء المعدودين .. وصهره (الأمير مجيد ارسلان) كان وزيرا للدفاع عدة مرات في لبنان .

وذات يوم اتصل (كمال جنبلاط) بزوجة (مجيد ارسلان) قائلا لها سأتغدّى عندكم اليوم .. ووقعت المسكينة في (حيص بيص) وهي تكتب قائمة الطعام الذي يمكن تقديمه لكمال جنبلاط .

كانت قد كتبت :

(خس ، جرجير ، فجل ، جزر ، كوسة ، خيار ، طماطم ، بقدونس) ثم لم تعد تدري ماذا تكتب .. في الوقت الذي وصل فيه زوجها فوجدها على تلك الحال من الحيرة في أمرها .. فلما سألها أخبرته أن (كمال بيه) سيتغدى عندهم .. ثم طلبت مساعدة زوجها في إعداد القائمة .. فلما قرأ القائمة التي كتبتها من قبل لم يتمالك أن صرخ قائلا :

(هيدا أكل أوادم .. والا أكل أرانب) .

ويضحك القصيبي للنكتة .. ولكن المعري لم يضحك لأنه لم يفهمها ..

ولكن عندما فهمها بعد ، اكتفى بالترحم على جنبلاط .

وعندئذ فقط .. أدرك القصيبي مدى ورطته بهذه الضيافة .. فهو لم يستضف (أرنبا) قط .. ولا يعرف بالضبط ما هي الأكلات المفضلة عند الأرانب من نوع أبي العلاء ، وكمال جنبلاط .

وعندها قال القصيبي في نفسه :

هذه ورطة حقيقية ولن ينقذنى منها غير العمير .. فهو الذي أعاده في المرة الأولى إلى قبره .

ولكنه ــ أي القصيبي ــ لم يستعن بالعمير لانقاذه من ورطته .. بل ابتكر طريقة أخرى أذكى بكثير .

لقد استدعى لضيفه أحد الشعراء التقليديين .. فلما أنشده أول بيت من قصيدة له .. سقط ذقن أبي العلاء على صدره وراح في غيبوبة لم يفق منها إلا وهو بحضرة شاعر آخر من أحدث طراز .. فما كاد يسمعه بعض النقاط وعلامات التعجب من شعره حتى كان أبو العلاء قد فارقته الروح بصورة لا يمكن لأنيس منصور أن يستحضرها بعد ذلك .

وارتاح القصيبي فى نهاية الأمر .

ولكني أنا ــ كاتب هذه السطور ــ لم أسترح من التفكير في موضوع تلك الاحصائية الهائلة لرؤوس الابل ، والأبقار ، والأغنام التى ذبحت في بلادنا .

هل يعقل أن نكون قد أكلنا كل تلك الأعداد الهائلة .. أم هي القمائم التى أكلتها ؟

إن القمامة عندنا تأكل أكثر مما نأكل نحن بكثير جدا .. ولذلك لاشك أن القمائم عندنا هي المسؤولة عن كل رقم من أرقام تلك الاحصائية التى قرأتها .

والله حسبنا ونعم الوكيل ..

عكاظ ١٦/٩/١٤٠٢ هـ



شروطي!

بقلم الأستاذ: عزيز ضياء

إن كان قد فاتني أن أقرأ ما يتحفنا به الأستاذ على العمير ، منذ استطاعت عكاظ أن تعتقله وأن تعيده إلى رواق كتّابها ، فهو هذا الحوار الذى دار ، وربما سوف يظل يدور بضع سنين بينه وبين الأستاذ العقيلي ، لأن الموضوع بالنسبة لي طلسم لا طاقة لي على معايشته[١] .

أما هذه اليوميات[٢] التى تنشرها عكاظ في (ملتقى الآراء) للأستاذ العمير ، فانها عندي واحدة من أفضل ما أحرص على قراءته ، لأنه ــ إلى جانب ما يمتاز به من عمق التناول ، بقدرة تدهشنى على تجنب عملية (سلق البيض) التي يقع فيها أكثر من يلتزم الكتابة يوميا ، ــ وقد أكون أنا منهم ــ لأنه الوحيد الذي لا تفرغ من قراءته إلا وأنت تبتسم إعجابا بالسخرية اللاذعة والمهذبة في نفس الوقت ، أو ضاحكا للقفشة الذكية التى يشعها ببراعة يندر أن تجد من يبلغ مستواها ، بين من يحاول أن (يخفف) دمه على القراء . ولولا أن الدكتور حسن نصيف يكاد يملأ أكبر مساحة من الفراغ في الأدب الضاحك ، بتساليه ورمضانياته ، لكان ما يستحقه العمير ، أن يوصف بأنه اليوم الكاتب الوحيد الذي يعرف كيف يعالج الموضوع الجاد بشحنة من الخيوط الضاحكة ، وكثيرا ما يكون بينها تلك الخطوط التى تعطيك ملامحه شخصيا وقد طوعها لمطلب السخرية المازحة ، يبتسم لها القارىء ، لكنه لا يملك إلا ، الاحساس ، بالرضى والألفة والحب !!

---

(١) يشير إلى معركة أدبية دارت رحاها مع العقيلى حول كتابه (المخلاف السليمانى) .

(٢) يقصد زاويتى اليومية (تحت الشمس) .

وفي مقاله الذي استضاف فيه المعرّي على مائدة الفارسي والقصيبي ، يفتح العمير نافذة على مخزونه من القدرة على معالجة العمل الكوميدي في مستوى الأستاذية النادرة ، التي يقل نظيرها بين من يتصدون لكتابة الكوميديا ، ويخرجونها في أعمال مسرحية ، لا يكاد يرفع عنها الستار حتى تتهافت ، وتأخذ في السقوط ، وإن كان فيها ما يضحك جمهور النظارة فهو تلك الحركات القردية السخيفة ، التى لابد أن تضحك التافهين من العوام ، بينما تسخط من يتمتع بشيء من الثقافة والوعي ..

ويمتاز العمير ، بعد ذلك بأنه ظاهر الحرص على جزالة الأسلوب ، وحسن اختيار مفرداته اللغوية ، دون تقعر أو إغراق في التعقيد .. مع رشاقة الجملة وقدرتها رغم قصرها على توصيل المضمون مشرقا ومحتفظا في نفس الوقت بنصيبه الوافر من التهذيب والدعة واللطف ..

لم أر العمير منذ سنين طويلة ، فاذا أتيح لي أن أراه في يوم ما ، فانني سأحاول إقناعه بأن يتفرغ لكتابة التمثيلية الضاحكة ، للاذاعة والتليفزيون ولن يمنعه ذلك أن يواصل لقاءه بقرائه في عكاظ ..

عكاظ ١٤٠٢/٩/٢٠ هـ



قمة لم تكتشف

لم أكد أصدّق أنني المقصود ـــ حقا ـــ بكل ذلك الثناء العاطر المستطاب الذي أغدقه على شخصى الضعيف أستاذنا الكبير ـــ الكبير حقا ـــ (عزيز ضياء) فى زاويته الشهيرة (نشر وطني) بتاريخ ١٤٠٢/٩/٢٠ هـ .

لم أكد أصدق كل ذلك لأنني ـــ عند نفسي ـــ أقل من ذلك بكثير جدا .. فكيف أكون قد بلغت تلك المنزلة العالية عند أستاذنا الكبير ، وهو من هو ، اللهم إلا أن يكون قد أراد تشجيعى ، وشد أزري .. ولكن ما قاله عني أكثر بكثير مما يقال في مجال التشجيع أو نحو ذلك .

وعهدي بأستاذنا شديد الضن بالثناء إلا في موقعه وموضعه .. فهل أنا أصبحت أهلا وموضعا لثناء أستاذنا ؟

اللهم لا .. اللهم لا !!

وإنما هي غمرة عطف ورضى من أستاذنا الكبير .. ولاشك أنني أستحق عطفه ، وأطمع في رضاه .. ولكن أن يبلغ بي ما هو أكثر من ذلك ـــ فليس هو غير الفخار والزهو .. ياعمير !!

كان النابغة الذبيانى .. يضرب خيمته في (عكاظ) فيفد إليه الشعراء .. ينشدونه روائعهم .. فلا يكاد يعلّق بشيء .. يضن بمجرد الكلام العابر .. أو التحية العادية .. ولكنه إذا سمع بيتا شرودا .. أو معنى بكرا ، طرب واهتز وانتشى .. ثم لا يلبث أن يضرب على كتف الشاعر قائلا له قولته المشهورة :

اذهب يا ابن أخي .. فأنت أشعر العرب !!

وكانت هذه العبارة هي أرفع وسام يمكن أن يحصل عليه أي شاعر جينذاك

وسام لا يكون فخرا للشاعر فحسب .. بل لقبيلته بأسرها .. ولحليفاتها أيضا من القبائل الأخرى !!

وأستاذنا (عزيز ضيا) ــ وهو في (عكاظ) أيضا ــ أقدر من النابغة الذبياني وأوسع منه معرفة بالأدب ــ شعره ونثره ــ بما لا يقاس ، وهو أيضا أشد بخلا بثنائه من النابغة الذبياني .. ورغم كل ذلك فقد قال عني أكثر مما كان يقوله النابغة عن الفحول من شعراء عصره .

وكان الخليفة (المأمون) من رجال العلم والأدب المعدودين في عصره .. جمع إلى مجد الخلافة سعة العلم ووفرة الأدب كما هو المشهور عنه .

ثم وهو على هذا القدر من هيبة الخلافة ، وجلال العلم ، وزينة الأدب .. يفد عليه الشاعر (كلثوم بن عمرو العتابي) فما أن يسلم عليه بالخلافة حتى يبادره المأمون قائلا :

(كلثوم ياكلثوم .. بلغتني وفاتك فساءتني .. ثم بلغتني وفادتك فسرتني) .

فقال له العتابي :

(يا أمير المؤمنين .. لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتاهما فضلا وانعاما ، وقد خصصتني منهما بما لا تتسع له أمنية) .

والمأمون ــ فيما عدا الخلافة ــ لا يكاد يزيد شيئا كثيرا عن أستاذنا عزيز ضيا .. ولكن أنا أقل بكثير من العتابي الشاعر .. ومع ذلك فقد وسعني من فضل ثناء أستاذنا الكبير ما لو تقاسمه أدباء المملكة بأسرهم لوسعهم بزيادة .

فماذا عساه يكون موقفي ؟

(لا خيل عندى أهديها ولا مال) .. وأما (إسعاد النطق) فهل أجلب التمر إلى هجر كما يقول المثل ؟

أي نطق عساه يسعفني فأسعد به مثل عزيز ضيا ؟

وحتى لو كان ذلك في مقدوري .. وأردت أن أهدي إلى أستاذنا

الثناء ــ وهو جهد المقل ــ فسيقال : ها هما يتبادلان الثناء ، ولابد أن ذلك باتفاق بينهما على طريقة (شيلنى وأشيلك) .

ولكني لن أتيح الفرصة لأمثال هذه المقولات اللئيمة .. وسأكتفي في مجال الثناء هذا .. أن أستعير من أستاذنا (عبد العزيز الرفاعى) ما ذكره أو كتبه ونشره على غلاف كتاب للأستاذ عزيز ضيا نفسه ــ ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة ــ وهو بعنوان (حمزة شحاته .. قمة عرفت ولم تكتشف) فقال الأستاذ الرفاعي ، وهو صاحب المكتبة الصغيرة ، وناشر الكتاب المذكور .. قال :

(يعتقد أستاذنا الكبير .. عزيز ضيا أن الشاعر العبقري ، حمزة شحاته .. قمة لم تكتشف بعد .. وهو في ذلك على حق .. وأنا أعتقد شيئا آخر أيضا .. هو أن أستاذنا عزيز ضيا .. قمة لم تكتشف كذلك .

إن الأستاذ عزيز ضيا نفسه ، رغم صولاته الكثيرة الشاسعة فى ساحة الأدب السعودي .. يظل بارزا فى ميدانين اثنين لا يكاد يتخطاهما .. وهما الصحافة والاذاعة .

لذلك أرجو أن لا أكون مخطئا إن قلت : إن هذا الكتاب يعد أول كتاب يصدره أستاذنا الكبير .. وبه يعيننا ــ معشر القراء ــ على التعرف لا على حمزة شحاتة القمة فحسب ..بل أيضا على القمة الأخرى .. أعني (عزيز ضيا) .

الكتاب إذن يمثل قمتين .. إحداهما تتحدث عن الأخرى .. قد لا أغلو إذا قلت : إن الأستاذ عزيز ضيا يبلغ حقا الذروة في النثر السائغ السلس القوي الآسر .. تماما كما يبلغها حقا الأستاذ حمزة شحاتة في الشعر المتدفق ، حيوية ونصاعة وعبقرية .

إن هذا الكتاب محاولة أولى لاكتشاف القمتين معا) .

انتهى مقال أستاذنا الرفاعي ..

ولقد استعرته منه ليس فقط لأنني لا أستطيع أن أفي أستاذنا عزيز ضيا حقه من الثناء .. بل لأن عزيز ضيا أكبر من ثنائي وأغنى عنه .. ولكني أردد مع صاحبنا (العتابي) السالف الذكر .. قوله :

فتّ المدائح إلا أن ألسننا مستنطقات بما تحوي الضمائر

ثم تبقى ـــ بعد كل ذلك ـــ كلمة لابد منها ..

لقد عتب عليّ أستاذنا الكبير في نهاية مقاله تلميحا ولكن أبلغ من كل تصريح حيث قال :

(لم أر العمير منذ سنين طويلة ، فاذا أتيح لي أن أراه في يوم ما ، فاني سأحاول إقناعه بأن يتفرغ لكتابة التمثيلية الضاحكة للاذاعة وللتليفزيون ولن يمنعه ذلك أن يواصل لقاءه بقرائه في عكاظ) انتهى .

وأستاذنا عزيز ضيا ليس مديراً عاما للاذاعة والتليفزيون حتى يحرص كل هذا الحرص على استقطاب كاتب من طرازي .

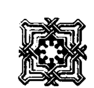
وإنما أراد بذلك أن يقول ما معناه بالبلدي :

(انت .. ياواد .. ياعلي .. ماتستحي .. ماتخجل .. كل هذه السنين لا أراك فيها .. لا تزورني .. ماهذا العقوق .. أولاد آخر زمن) !!

وأنا ـــ والله ـــ أعترف بذنبي .. وأعترف بتقصيري في حق أستاذنا الكبير .. ولا أجد ما يشفع لي غير أن أقول :

عذرا .. عذرا .. يا أستاذنا .. ياوالدنا الكريم .

عكاظ ١٤٠٢/٩/٢٣ هـ



مع شاعرنا الفقي

يقال أن إعجاب أي قارىء بشاعر أو أديب أو مفكر ، يرجع سببه في الواقع
إلى وجود تشابه بين القارىء وشاعره أو أديبه المفضل .

وليس من الضروري أن يكون التشابه في السمات .. بل هو التشابه في
مناحي التفكير ومشارب الثقافة .. فاذا صح هذا فسأكون فخورا جدا .. وأ
أعرب في كل مناسبة عن إعجابي بشخصية وشاعرية ، شاعرنا الكبير بحق
وحقيق ، الأستاذ محمد حسن فقي .

وقد سعدت أمس ـــ شأني شأن عدد كبير من المعجبين المتذوقين
للشعر ـــ بالرائعة الجديدة التى أتحفنا بها شاعرنا المبدع في جريدة المدينة الغراء .

والقصيدة بعنوان « صديق » أوجعه شاعرنا بالعتب واللوم ، وكشف حقيقت
الزائفة ومعدنه الرقيق ، كما اجتهد شاعرنا في اعتداده بنفسه إزاء هذا الطراز من
الأصدقاء .

وما أنا مما يضمرون بآمن   ولا أنا مما يظهرون بخائف

ثم يبرىء الشاعر نفسه مما قد يتهم به من سوء ظن أو تحامل أو النظر إلى
الحياة والأحياء بمنظار أسود .

يقولون أني ليس يبدو لناظرى   من الناس طرا غير سود الصحائف
ولو صدقوا يوما لقالوا بأنهم   سواد عقول في سواد عواطف
قد استتروا خلف المعاطف خشية   من المبصري الأسواء خلف المعاطف

إن القصيدة تعتبر بحق رائعة من روائع شاعرنا الكبير فى وحدة موضوعها
ودقة وعنف تناولها فضلا عن لفتات فكر بارع ، وخلجات نفس خبيرة مجرب
عانت الكثير ، ومارست الكثير .. وذلك هو الفضل .

وإنني أشعر دائما أن هذا الشاعر الكبير لم ينل من التقدير ما يتناسب مع عطائه الثر وينابيعه الفكرية المتدفقة .

إنه الدليل القائم على مدى ما لدينا من جحود ونكران للنبوغ والفضل .. وإلا فإنني لا أعتقد أن لدينا من الشعراء الفحول ما يبيح لنا إغفال مثل هذا الشاعر الفحل .

غفرت لدهري إنني بك عارف وإنك بي دون الورى غير عارف

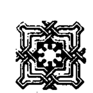
ألا فاغفر ثم اغفر .. فلعلك تجد في ساحة الغفران ما يجعلك تعذر أبناء دهرك إن وُجدت بينهم في زمن سادت فيه الزعانف ، وراجت السفاسف ، وفسد الذوق ، وضحلت المعارف !!

لك الله أيها الشاعر الكبير .. فاما أن تكون قد تقدمت عن زمنك أو تأخرت في المجيء كثيرا .. من يدري ؟

كان ينبغي أن توجد في زمن المتنبى والبحتري وأبي تمام أو تتأخر مع شعراء لم يأتوا بعد .

أما وقد وجدت بيننا فلا تعتب .. بل اغفر .. ثم اغفر !!

البلاد ١٣٩٣/٧/٢٣ هـ



مشلح، وعقال، ومساجلة شعرية !

لكل أمة من الأمم زيّها وتقاليدها وعاداتها .. تنشأ أول ما تنشأ هذه التقاليد والعادات والزي .. بدائية بسيطة ثم لا تكون هذه البساطة إلا إرهاصا لما سيكون بعد من تطوير وتعديل وتحسين .. ثم .. ثم لا تكون تلك البساطة ، وهذا الارهاص إلا بوحي ــ أصلا ــ من مستلزمات البيئة وضروراتها !!

فمثلا تاريخ (العقال) عندنا .. أو بدايته كانت وسيلة فأصبحت غاية في ذاتها .

كان أسلافنا عندما يرتحل أحدهم من مكان لآخر .. يمتطى ذلوله ، والذلول في حاجة عند الإناخة إلى عقال ، وإلا ذهبت تنشد المرعى وتهيم على وجهها لا تلوي على شيء .. الأمر الذى يسبب لصاحبها عنتا ومشقة في البحث عنها عند الحاجة فكان لابد للذلول من عقال .

والعقال إنما هو (حبل) يتخذ لربط الناقة أو الذلول باحدى يديها .. عندما تكون باركة على الأرض ، وتكو ن يدها المربوطة في شكل منثن .. فلا تستطيع ــ لو قامت فكاكا أو انطلاقا .

وفي الحديث عن النبيﷺ أعقلها وتوكل .

ثم كان لابد لصاحب الذلول أن يصطحب معه هذا العقال بصورة دائمة .. عندما يكون كثير الترحال والانتقال .. فرأى أن خير وسيلة لحفظه من الضياع ، وجعله قريب المتناول أن يثنيه ويربطه على رأسه .. فلا يكاد يخلعه من رأسه إلا ليعقل به ذلوله ولا يكاد يطلقها منه إلا ليعيده إلى رأسه !!

وعرب هذه الجزيرة ــ قدما ــ ما منهم إلا وهو صاحب ذلول كثير الترحال والارتياد فلست تراهم إلا معصوبى الرؤوس بالعقال .. فأصبح عصب الرأس

بالعقال جزءا لا يتجزأ من زيهم .. فلما ورثنا ذلك منهم ولم تعد لدينا المطايا .. فقد جعلنا منه غاية في ذاته نعصب به رؤوسنا في غير ما حاجة لاستعماله كما كان أسلافنا ومادام قد أصبح في ذاته غاية بالنسبة لنا .. وتكملة لزينا .. فقد أدخلنا عليه تحسينات لم يعد معها مجرد حبل لربط الناقة .. بل أصبح زيّاً وأصبحت سوقه رائجة كزي لا كحبل !!

وأما (المشلح) فقد اتخذ أول ما اتخذ للوقاية من البرد .. فكان يغزل ويعمل من الصوف الخالص .. يستعمله عرب الصحراء يتلففون به عند اشتداد البرد لمجرد الوقاية من البرد .. لا باعتباره زيّاً في ذاته .. وكان صنعه بدائيا ساذجا .. لا كما هو اليوم في منتهى الفخامة .

فكما كان (العقال) عند أسلافنا مجرد وسيلة .. أصبح عندنا غاية .. كذلك (المشلح)كان عند أسلافنا لمجرد الوقاية من البرد فهو يعمل خشنا غليظا ما أمكن ذلك .. أصبح عندنا زيّاً .. فنحن نتخذه رقيقا ناعما هفهافا ما أمكن ذلك .. وبذلك انحرفنا به عن غايته ، وجعلناه زيّاً شائعا رسميا في ذاته .

والحقيقة أن هذا (المشلح) وذلك (العقال) يرهقاننا من أمرنا عسرا في التكاليف والاستعمال والمظهر .. لذلك ترى الكثير من الشباب ، وغير الشباب يحجمون عن استعمالهما ، ولولا البيئة والمناسبات ، وحكم العادة .. لما عصب أحدهم برأسه عقالا ، ولما أسبل على هيكله مشلحا .

وإنك لترى الآن رجالا يزاولون أعمالا مختلفة أشد ما تكون حاجة إلى التخلص من هذه الأعباء المرهقة ويشعرون أنها فوق رؤوسهم ، وعلى أجسامهم من قبيل (لزوم ما لا يلزم) .. ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون منها فكاكا .. مادام عليهم أن يحترموا الزي الرسمي الكامل وإلا فهم عرضة للهزء والسخرية والاحتقار لذلك فهم يرضخون مرغمين لهذه المفاهيم .. مع أنهم على يقين أنها مفاهيم خاطئة .. أو لا لزوم لها .

ومن ذلك ما يتحدث به بعض الناس في مجالسهم همسا ، وما نشره بعض الكتاب علنا ..

ومن أطرف ما قرأته أخيرا من هذا القبيل في جريدة الندوة .. مساجلة شعرية
فكهة طريفة بين الأساتذة .. حسين سرحان ، وحسين عرب ، وأحمد جمال ،
وها أنا أستعرضها .. كلون من الأحاديث التي تدور في الأوساط الواعية ، مندد
بهذا المشلح المرهق ، وهذا العقال الذى ما (أنزل الله به من سلطان) !!

يقول الأستاذ سرحان :

تحملت العباءة والعقالا وهذا البرد ينثال انثيالا
ففيها الدفء من قرٌّ وصرٍّ إذا هبّت ذوائبها شمالا
ولكن كيف أحملها بيوم عنيف الحر يشتعل اشتعالا

هذه هي علامة الاستفهام الكبيرة .. التى تركها الأستاذ (سرحان) تتلوّى
حيرة وغموضا .

نعم .. نعم .. كيف يلبسها فى يوم شديد الحر ؟ وهل لابد من ذلك
ولماذا ؟ أما فى البرد .. فحملها معقول كأية (بطانية) مهذبة .. تقيه البرد .
ولكن في الحر أيّ لزوم لها ؟ .. مع بقية الأثافي من غترة وطاقية ؟

أرى عرقي إذا ما جفّ حينا تفجّر ـ بعد وانهمل انهمالا

وكيف بالله لا يتفجر وينهمل ، وأثاف ثلاث تكتنفه ، غترة ، ومشلح
وعقال ؟

وأذابت غترتى وسقت قذالى بمعتصر يدير بى القذالا
وهل (طاقيتى) يوما ستغني إذا انسلّت حواشيها انسلالا

لا لن تغن !!

وأما الأستاذ حسين عرب .. فهو ثائر مزمجر .. فيه من غترته وحدها غ
تمطّى فكيف بعباءة وطاقية فأما العقال .. فهو يرى الدنيا بما وسعت عقالا !

فيــا لعبــاءة كانت خيوطــا على كتفي فأنــدالت حبــالا
ومــا (طاقيتـــي) إلا مجاز تكلت به الحقيقــة والخيــالا
ومــا لي والعقــال فان نفسي ترى الدنيا بما وسعت عقالا

فاذا كان هذا هو (حسين عرب) وهو من هو وزيرا وأديبا ومفكرا .. يرى في المشلح والعقال والغترة هذا الرأي الحر العنيف ، ومع ذلك يلبسها رغما عنه .. أفلا ترى في ذلك — أيها القارىء — تنافرا واضحا كافيا لأن يحملنا على أن نفعل ما نرى ونعتقد .. لا ما تفعله البيئة وتعتقده ؟

أما الأستاذ أحمد جمال .. فهو يرى في لبس المشلح والعقال مدعاة للزهو والجلال ، ويرى في المشلح أنه يغني عن اللحف والبطانيات ، كذلك العقال قد ينفع عند اللزوم تصدّ به عداءة عاد .. وتكسب به احترام غرّ الأجناد ؟ (السخرية واضحة !!)

أسمعه يقول :

سلا كتفيّ يوم لبست بشتا ورأسي حينما اعتصب العقــالا
كان يفوقنـــي غيري زهــــوا على الدنيــــا ويــــكبرني جلالا
وما أغنـى العبــاءة عن لحاف و (دقديق) إذا ما البرد صالا
وما أوفى العقـال لضرب عاد يــادلك السّباب أو الــنضالا
ومـــا أحـــراه حين يراك غرّ من الأجناد أن يقـف امتثالا

وهذه .. فى رأيي تبريرات ساخرة متهكمة ، ولكنها مهذبة على كل حال !!

وها أنت ترى أيها القارىء الكريم مدى ما تبلغه الأحاديث الخاصة من نيل المشلح والعقال خاصة .. كأي شيء لا لزوم له ومع ذلك لابد منه !!

أما والله .. أننا لنعيش في حيرة وصراع بين آرائنا وبين ما تفرضه علينا البيئة التقاليد العتيقة .. بين إيماننا ورغباتنا في الانطلاق . وبين قيودنا السخيفة التى نرزح تحت نيرها .. وبين مفاهيم العصر الجديد المنطلق .. وبين رواسبنا الآسنة المركدة .

مجلة الرائد ١٣٨٣/٦/٣ هـ

المكتبة المنزلية !

أخي الكريم الأستاذ/ السيد علي فدعق

قد تفاجأ بتوجيه هذه الرسالة إليك .. وعلى صفحات الجريدة .. بينما كان
بامكاني أن أوجهها إليك رأسا بالبريد ثم لا أخسر أكثر من بضعة قروش قيمة
طوابع البريد .

مع معرفتي الأكيدة لهذه البدهيات .. فضلت أن أوجه لك هذه الرسالة على
صفحات الجريدة .. ليس لأنني أبخل ببضعة قروش .. ولا لأن عندي تلك
الأفكار القيمة التي يجب أن أعممها على القراء .. ولكن لما هو أقل أو أكثر من
هذا وذلك فضلت أن أوجه لك هذه الرسالة على صفحات الجريدة وسأذكر
السبب ضمنا فيما بعد .

الوقت الآن بعد منتصف الليل ..

اشتغلت في بداية هذه الليلة أو مطلعها مع بعض الاخوان فى نقل مكتبتي
المتواضعة من غرفة كانت تحتلها بكاملها إلى غرفة أخرى .. حشدت بها الجدران
من كل جانب .. ولم يبق فى الغرفة من مجال سوى الوسط .

الوقت الآن .. قلت بعد منتصف الليل .. وأنا تعب جدا من جراء المجهود
الذى بذلته كمشاركة في نقل المكتبة .. ولست أدري كيف ألقيت نظرة على
الكتب التى تكاد تصطدم بأنفي .. نظرة فيها شيء من الحنان والحب لهذه
الكتب .. وفيها شيء ربما أكثر من القرف والنكد والمتاعب التى تكبدتها من جراء
الحرص على الاحتفاظ بمكتبة منزلية ولعلك بدأت الآن تعرف سبب توجيه هذه
الرسالة إليك بالذات .. وعلى صفحات الجريدة ؟

صدق .. أو لا تصدق .. وقع نظري صدفة على كتاب (فكرة اليوم) .. الكتاب الذي صدر عن وزارة الاعلام منذ حوالي ثلاث سنوات .

ومنذ ذلك الحين كان من ضمن محتويات مكتبتي المتواضعة — ولكنني لم أقرأه إلى الآن .. ليس استهانة به إلى هذا الحد .. ولكن لأنني سمعت معظم مادته من الاذاعة رأسا ، وهو — أي الكتاب — كما تعرف مختارات من برنامج (فكرة اليوم) الذي تقدمه الاذاعة .. لذلك — ربما لأكثر من ذلك — لم أحفل بقراءته طيلة السنوات الماضية .

أما الليلة فقلت أتسلى فيه .. حتى ينضج النوم !

وكعادتي دائما في قراءة الكتب أبدأ دائما بالفهرست وما إليه .. وخطر في بالي أثناء ذلك ، وبعدما قرأت عدة أسماء من كتابنا الأفاضل .. قلت في نفسي أنها فرصة أتعرف على مطامح هؤلاء الكتاب عن طريق أفكارهم المختصرة المضغوطة هذه .

هل تصدق ياسيدي أن أول ما توصلت إليه إطلاقا هو أن الأستاذ عبد المجيد شبكشي — وهو أحد كتب فكرة اليوم — يختلف أسلوبه كثيرا ، وحتى نهج تفكيره بفارق ملحوظ بين أسلوبه السهل البسيط الحلو في (فكرة اليوم) وبين مقالاته المنشورة فى جريدة البلاد التى يرأس تحريرها[١].

إنه في (فكرة اليوم) يمتاز ببساطة مذهلة في الاقناع والأسلوب .

أما فى افتتاحيته للجريدة أو مقالاته بها فتشعر بأسلوب صحفي زهقان .. يسأل الله دائما الغفران والرحمة .. وحسن التوبة !!

ربما شطحت كثيرا ياسيدي ، ولكننى أعتقد إنني مازلت في صلب الموضوع .. وإذا كان غير ذلك فلا تنس أن الوقت يزحف الآن نحو الفجر ، وأنا أكتب هذه الرسالة والمؤكد إنني سأتأخر في القيام غدا .. وبإمكان إدارة مؤسسة البلاد — وأنا أعمل بها كما تعرف — أن تعرف من مقالي هذا إنني تأخرت فتحصل مصيبة الحسم من مرتبي تبعا لاعترافي هذا .

---

١) اتضح لي فيما بعد سبب ذلك ولكن لا ضرورة لذكره هنا .

ولكن الأهم من ذلك ــ طبعا ــ هو موضوع هذه الرسالة .

قلت : أتسلى في كتاب (فكرة اليوم) حتى ينضج النوم .. ولم ينضج النوم مع الأسف أو بلا أسف قبل أن أقرأ (فكرة) لك أو بقلمك : عنوانها (مكتبة المنزل) قرأتها ووقفت عندها كثيرا .

إنني أشاركك الرأي من كل أعماقي في الضرورة الملحة لوجود مكتبة منزلية في كل منزل مهما تواضع .. ولقد تأثرت حقا بصديقك السائق الانكليزي الذي تشرفت أو تشرف هو بزيارتك لبيته فوجدت عنده مكتبة صغيرة في منزله .. والذي لاحظته عليه أنك كل ما ركبت معه وجدت أمام عجلة القيادة جريدة .. الخ .

إلى الآن فكرتك في غاية الروعة .

ولكن ــ تفكها وربما جدا ــ سأقص عليك حكايتى مع مكتبتى المنزلية . وهي ، أي المكتبة نموذج لمكتبات (الغلابى) من أمثالى الذين لا يملكون مساكن يقيمون فيها .. ومع ذلك أو بالاضافة إليه تضطرهم ظروف المعيشة الصعب للانتقال من مكان لآخر .. ومن مدينة لأخرى .

قبل عامين كنت في جدة ، وأنا الآن في الرياض ، وربما في أقل من عام أعو لجدة ، وقبل ذلك كله كنت في الرياض .. وأساس موطني جيزان .

وأثناء وجودي في أية مدينة أضطر للانتقال من منزل لآخر بحكم أنني لا أملك منزلا .

فهل تظن المكتبة المنزلية في هذه الحالة نعمة أم نقمة ؟

يقال أن النقل من منزل لآخر نصف حريقة .

وأنا على استعداد أن يحصل ما يحصل فى أثاث منزلي لا سمح الله ، ولكن أ ينخلع جلد مجلد واحد من مكتبتي أصعب عليّ كثيرا من أن ينخلع ضرسي فما بالك وأنا عرضة للنقل في كل حين .. أليست مكتبتي المنزلية عرضة للتمزّ والضياع والشتات ؟

أنا أعرف أنك عندما دعوت إلى ضرورة المكتبة المنزلية ــ وأنا أشاركك بصورة ملحة في هذه الدعوة ــ كنت تفترض وجود مكتبات عامة .. بحيث لا يضطر الأديب أو المتأدب أو محب الاستطلاع إلا إلى كتب قليلة جدا في منزله .

ولكن ما رأيك في أن معظم مدننا ــ بله قرانا ــ لا توجد بها مكتبات عامة .. وحتى تلك التى توجد بها مكتبات .. ليست ــ مع الأسف ــ على المستوى المنشود .

وما رأيك فى شخص مثل أخيك الصغير يضطر لقراءة الكتب ومراجعتها بحكم هوسه وحبه للاطلاع ماذا يصنع ؟

ثم ما رأيك في أن وزارة المعارف الجليلة وجدت ما يشغلها في المدارس والمعاهد والكليات .. وانشغلت بذلك عنا نحن الذين لا نستفيد من المدارس والمعاهد والكليات ؟

يقال أن مهمة وزارة المعارف في أية بلدة ليست محصورة بالضرورة في المدارس والمعاهد والكليات .. وإنما تتعداها بكثير إلى الثقافة العامة .. والمكتبات العامة .. والمحاضرات العامة .. و .. العامة الخ .. الخ .

وأنا والله أعرف معالى وزير معارفنا(١) معرفة جيدة وأكيدة .. أعرف أنه يتطلع بطموح إلى مهام وزارته الجليلة .. ويعيها جيدا .. وبالتأكيد أكثر مني .

ولكنني لست الآن فى موقف المحامي عنه .. بل أنا ــ لا سمح الله ــ في موقف المهاجم له مهما كان عذره وأنا بذلك لا أتهم وزارة المعارف بالتقصير ولكني مواطن ينشد الأمثل والأكمل لبلده الحبيب .

وإلا فانني أسمع وأرى في الراديو والتليفزيون معظم الأيام والليالي عن افتتاح مدرسة أو معهد أو كلية .. أو حفل في مدرسة أو معهد أو كلية ، ولكنني لا أسمع نفس الاهتمام بالمكتبات العامة .. وإن كان هناك شيء من ذلك فهو

(١) كان وزير المعارف هو معالى الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ قبل إنشاء وزارة التعليم العالي وتوليه إياها .

ليس بالقدر المنشود والأمثل .. وأظن معالى وزير المعارف نفسه يشاركني هذا الرأى فضلا عن غيره من المواطنين .

ولاشك أن شيئا من ذلك ضمن مشروعات الوزارة حاليا أو مستقبلا .. ولكن الملاحظ إلى الآن بصورة أكيدة أن انشغال الوزارة بالمدارس والمعاهد والكليات قد أشغلها عنا نحن الذين لا نستفيد من المدارس والمعاهد أو الكليات .. ونحن لسنا قلة إلى الحد الذى يمكن أن تستهين به وزارة معارفنا الجليلة .

فيا أخى .. يافدعق .

أنا والله معك في ضرورة وجود المكتبة المنزلية .

ولكن قبل أن تكون دعوتك ، وقبل أن توجد المكتبة المنزلية .. يجب أن توجد المكتبة .. بل المكتبات العامة في كل مدينة وقرية .. بل يجب أن تعرض الكتب برخص رغيف العيش نفسه .

عكاظ ١٣٨٩/١/٢٧ هـ





اللغة بين النطق والكتابة

يطالعنا بعض أدبائنا بمباحث لغوية بين حين وآخر .. ومنها تصحيح نطقنا لبعض الكلمات فجيزان صحتها جازان .. وجدة بالضم لا بالكسر ولا بالفتح .. وأخيرا ثقافة بالكسر لا بالفتح وغير ذلك من التصحيحات التى يبدو واضحا أنها تصحح طريقتنا في النطق .

وقد كنا مع الأستاذ محمد حسين زيدان في حديث عن ذلك فقال أنهم يؤاخذوننا على النطق وذلك لا يصح .

ومن المعلوم أن معظم اللغات في العالم تنتهي إلى لغة راقية محفوظة مكتوبة هي لغة العلم والفكر والشعر والأدب وهي اللغة التى تحتفظ على مر الزمن بقواعدها وأصولها ونحوها وصرفها وبيانها ، ولغة أو لغات أو لهجات أخرى منطوقة أو محكية هي لغة الحياة اليومية أو لغة التعايش المرنة السريعة التي لا تخضع لقواعد أو نحو أو صرف .. وإنما هدفها بيان وإيضاح المطلوب .. وهي لغة العامة ولهجاتهم فيها مختلفة ونطقهم فيها للكلمات نفسها ضما أو فتحا أو كسرا أو إمالة حسب طريقة كل قوم في النطق ترخيما أو إمالة أو فتحا أو كسرا .. الخ .

واللغة العربية لم تكن مقيدة بقواعد ونحو وصرف الخ.. الخ إلا بعد أن أصبحت لغة القرآن الكريم أي لغة للاسلام الذى بعث الله نبيه ليكون رسوله إلى العالمين مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله أي إلى دينه الاسلامى الحنيف . فكان لابد من أن يختلط العربي المسلم بغيره من الأعاجم سواء عن طريق الفتح أو غيره من الطرق فالمسلم أخو المسلم ، ولا فرق بين العربى على العجمى إلا بالتقوى (لا باللغة) .

وحيث أن اللغة العربية هي لغة القرآن ولابد أن يحفظ الله كتابه كما أنزل ..

وحيث بدأت العجمة تتسرب إلى العربية فقد هب القوم بكل جزع إلى وضع

قواعد اللغة وأصولها . فأصبحت تلك القواعد علما بذاته لم يكن واردا لو لم تكن هذه اللغة لغة القرآن . وتقدم القوم وأخذت الفتوحات تنتشر في كل حدب وصوب في بلدان الأعاجم ينضمون إلى الاسلام زرافات ووحدانا يختلط بهم المسلمون ويختلطون هم بالمسلمين بالضرورة فكان لابد أن تتأثر اللغة العربية المنطوقة بكثير من الكلمات غير العربية وبضروب شتى من النطق تأثيرا بطرائق النطق وتأثيراته المناخية من مكان لآخر .

ولكن اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن ظلت محفوظة مكتوبة بعد أن نشط التدوين فلا يكتب العربي حديثه أو فكره أو أدبه أو شعره إلا بلغته الفصيحة المكتوبة كتفريق واضح بين لغة الكتابة ولغة النطق .

بل أن اللغة العربية كانت قبل نزول القرآن عدة لغات فهذه لغة قريش وتلك لغة تميم .. الخ .

ولقد تنبه عثمان بن عفان رضي الله عنه يوما فوجد أن القرآن نفسه قد كتب في عدة مصاحف على عدة لغات عربية هي السبعة الأحرف أو السبع اللغات فجمع المصاحف وأحرقها وأبقى فقط مصحفه الذي كتبه على لغة قريش ويسمى مصحف عثمان إلى اليوم .

ومن الواضح أنه رضى الله عنه لم يفعل ذلك إلا ضنا بالقرآن أن يتشت بين لغات العرب المختلفة وهو الذي ـــ أي القرآن ـــ أراد له الله الحفظ والمنعة .. ولم يكن قصد عثمان رضي الله عنه هو الانكار على العرب أو المسلمين بأن لا تكون لهم غير لغة واحدة لا تختلف في النطق أو الكتابة . فقد رأينا أن ذلك من العسير جدا فى عهد اللغة العربية في الجاهلية نفسها حيث كان يختلف نطق كثير من الكلمات من قبيلة إلى أخرى .. بل حيث كانت توجد كلمات عند قبيلة لا توجد عند أخرى وذلك تبعا لطريقة الحياة والمعيشة في كل قبيلة .

وقصة الحميرى مع الرسول ﷺ معروفة مشهورة (أليس من امبر امصيام في امسفر) فأم عند الحميريين توضع بدلا من أل التعريف فأقره الرسول ﷺ بل

جاراه في النطق بلغته ، وعلى الرغم من جوازها كلغة قوم ولغة حياة ونطق فقط فانه لا يجوز بالتأكيد أن نستخدمها في القرآن فنقول مثلا (امحمد لله رب العالمين امرحمن امرحيم) كما لا يجوز أن يكون القرآن بأية لهجة من اللهجات العربية الموجودة إلى الآن التى تحذف بعض الحروف أو تستبدلها بغيرها مع أن هذه اللغات واللهجات جائزة لأهلها كلغة حياة يومية .

ومن المعروف أن كثيرا من لغات العالم ومنها الانجليزية مثلا يوجد فيها كثير من الكلمات التى تكتب بشكل يختلف مع نطقها في الحياة اليومية ، وذلك يدل على أن القوم يحافظون على لغتهم ولكن في الكتابة فقط فأما النطق فيتركون لأنفسهم الخيار فيه .

وهل أدل على ذلك من أنهم يكتبون بعض الكلمات بشكل وبحروف تختلف زيادة أو نقصا عن حروف وشكل الكلمة التى ينطقونها وذلك لمجرد المحافظة على لغتهم المكتوبة والمحافظة في نفس الوقت على حريتهم في نطق أية كلمة كما تشاء حاجتهم وذلك هو الأساس في معظم لغات العالم تقريبا فان البون الشاسع بين اللغة الفصحى لغة الكتابة والأدب والفكر وبين اللغة المنطوقة لغة الحياة والمعيشة ، معروف للجميع .

ومن هنا وددت أن أشير إلى أن هؤلاء الذين يقومون بالتصحيحات اللغوية بين حين وآخر يجب أن يتجه تصحيحهم إلى تحرير اللغة الفصحى المكتوبة من الكلمات الدخيلة عليها لا من طريقة النطق بهذه الكلمات أو بغيرها فذلك هو الفرق .. والله أعلم .

البلاد ١٣٩٢/٩/٨ هـ



محنة المفكر العربي !

لعل من أبرز مظاهر محنة المفكر العربي في عالمنا العربي ما يعانيه رجال الفكر أنفسهم من تناقض ، وشتات وتمزق كنتيجة لابد منها لما عاناه العالم العربي نفسه منذ أصبح محوراً للأطماع الاستعمارية والحروب الصليبية والصهيونية وغيرهما .. حتى لقد أصبح المفكر العربي لا يستطيع أن يلم شتات ذهنه أو تفكيره في خضم المذاهب والاتجاهات والصراعات التى تعج بها الساحة العربية . وهي مذاهب واتجاهات وصراعات زرعتها أيد أجنبية لأهداف وأغراض ليس منها بالطبع تنمية الفكر العربي .. بل اضطرابه وبلبلته وإفساد رأيه !

ولكل مذهب من تلك المذاهب شعاراته البراقة وصيغه المنمقة وفلسفته التى تبدو في خضم الشعارات والصيغ وكأنها غاية ما تسعى إليه الانسانية من سعادة ورقي وطمأنينة وفردوس !!

وكل هذا أو غيره من المغالاة أو المبالغة في التعصب للمذاهب والأفكار يمكن أن يقبل ولو على سبيل (لابد مما ليس منه بد) أو لمجرد حرية الفكر أو حرية المعتقد .. أو أى شيء من هذا القبيل لا تشوبه الشوائب أو تحوكه الدسائس .

ولكن المشكلة أن الذين يتزعمون المناداة بحرية الفكر أو حرية المعتقد هم أشد الناس ضيقا وتبرما واقذاعا في السباب والشتائم وكيل التهم بالخيانة والعمالة والجاسوسية والتعفن الفكري إلى غير ذلك من الموبقات التى يكيلونها ضد كل من يعارضهم الرأي أو الفكر أو المعتقد .

وهذا وحده يعطينا أكبر دليل على أن مزاعم حرية الفكر والرأي .. أو حتى

مزاعم التقدمية أو الحداثة والمعاصرة إنما هي مجرد ستار لتغطية ما هو أهم وأخطر من دعاوى الفكر أو الحرية أو ما شابه ذلك .

ولو كانت المسألة مسألة حرية فكرية أو مذهبية لكان الأمر أدعى إلى سماع الرأي ونقيضه ولكان الأمر أدعى إلى سماع قبول النقاش في كل مذهب أو اتجاه برحابة صدر وسعة أفق ورغبة صادقة في الوصول إلى الأفضل والأكمل ولكن دعاوى حرية الفكر أو دعاوى المذاهب المختلفة ليس لها من اسمها أدنى نصيب وإنما كل فريق يعمل لغايات مختلفة ولحساب جهات بعينها ذات مصلحة في انتشار هذا المذهب أو ذاك كجزء من مخططاتها البعيدة المدى والأهداف .

ولذلك ما أن يبدي أي مفكر عربي رأيه الصريح في شأن من الشئون أو مذهب من المذاهب حتى يهب المجندون لذلك المذهب في حملة عنيفة مسعورة ليس منها بالطبع أدنى أصول النقاش أو الجدل أو قرع الحجة بالحجة وإنما هي — أي الحملة — سيل من الشتائم والاتهامات التي تصل إلى حد استعداء السلطات .. أو بالأصح استعداء قوى المراكز المناصرة لذلك المذهب الذي تناوله المفكر العربي — أي مفكر — برأي من الآراء أو ملاحظة من الملاحظات !!

وينسى هؤلاء بكل قحة وبجاحة ما كانوا ينادون به بالأمس القريب وربما في كل يوم أو حين وفي مناسبة أو غير مناسبة من حقوق المواطن في حرية الرأي والفكر والتعبير .. فكأن حرية الرأي والفكر والتعبير هي حريتهم وحدهم فيما يدعون إليه من مذاهب وآراء وكأن هذه المذاهب والآراء من القدسية بحيث لا ترقى إليها حرية الآخرين في إبداء الرأي أو الملاحظة !!

تلك هي المحنة الحقيقية التى يعيشها المفكر العربي ولاشك عندي .. بل إني على يقين تقريبا بأن هناك الكثير من المفكرين العرب يحرصون كثيرا على كتم أو خنق أفكارهم خوفا من مغبة ما لابد أن يتعرضوا له من قبيح الذكر من قبل مجندي قوى المذاهب والاتجاهات الخفية الغامضة أو حتى المعلنة في بعض الأجزاء من الوطن العربي !!

وإذا صادف أن تشجع أحد المفكرين العرب وأبدى رأيا أو مجموعة آراء في شأن أو آخر فانه سيقضي وقتا طويلا وهو يسود الصفحات تلو الصفحات في الدفاع عن نفسه وشرفه وكرامته ضد كيل التهم بالعمالة أو الخيانة أو الرجعية أو الارتداد .. أو بها جميعا ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

البلاد ١٥/١٠/١٣٩٤ هـ





فضل النقد على العلم والأدب !

كنت في زيارة خاصة للصديق الكبير الأستاذ عبد العزيز السالم فجلسنا ـــ كالعادة ـــ نتجاذب أطراف الحديث وخاصة في شئون الأدب والأدباء !!

فالحديث مع عبد العزيز السالم في مجالسه الخاصة لا يكون عادة إلا في شؤون الأدب والأدباء !!

ذلك لأنه كما ربما لا يعرف كثير من الناس أنه من خيرة متذوقي الأدب وأن الأدباء بخاصة من أحب الناس إلى قلبه وهو رجل واسع الاطلاع شديد الولع باقتناء الكتب والحديث عنها وعن مؤلفيها ومحققيها .. الخ .

وفي أثناء الحديث قام الأستاذ السالم إلى غرفته الخاصة حيث جاءني بمجلدين ضخمين هدية كريمة هما كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام تحقيق الأستاذ الكبير العلامة محمود محمد شاكر وهو بالمناسبة من أعز وأخلص أصدقاء الأستاذ السالم .

وعدنا ـــ الأستاذ السالم وأنا ـــ نتجاذب أطراف الحديث عن محققي الكتب القديمة ومدى الأخطاء الفادحة التى يقعون فيها .. ثم مكابرتهم مع ذلك على أخطائهم وأغاليطهم ، وكان لابد أن نشير في هذا المجال إلى الضد فالضد يبرز حسنه الضد كما يقول الشاعر فحدثنى الأستاذ السالم بكثير من الاعجاب والاعتزاز عن مدى ما يتمتع به الشيخ محمود محمد شاكر من تقدير كبير للنقد والنقاد .. فهو لذلك يحتفل كثيرا بكل ملاحظة تأتيه أو نقد يوجه إلى عمل من أعماله الأدبية والفكرية حتى لقد بلغ به الأمر أن وصلته رسالة عن طريق لندن من يهودي يعيش في اسرائيل تتضمن الرسالة بعض الملاحظات على أعمال

الأستاذ شاكر فلم يستنكف أن يحتفل بهذه الرسالة وهي من عدو ويأخذ بما فيها من وجاهة وصواب على طريقة : الحقيقة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها .. بل لقد أفرد الأستاذ شاكر فصلا خاصا في مقدمته لكتاب (طبقات فحول الشعراء) عن فضل النقاد في أعماله الأدبية وبصفة خاصة على الطبعة الأولى من هذا الكتاب وذكر جميع من أفادوه ونقدوه وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد صقر والشيخ حمد الجاسر .

فقد ذكر أن الشيخ الجاسر بعث إليه بمقال طويل جدا ضمّنه ملاحظاته على الطبعة الأولى من الكتاب وأن الأستاذ شاكر قد وجد جل أو كل تلك الملاحظات صحيحة تماما وأنه قد أخذ بها بأكملها تقريبا في هذه الطبعة الثانية للكتاب وأشار إلى ذلك بكل تواضع وصراحة في مقدمته لطبعته الثانية .

بل وصل به الأمر إلى أن تبرأ من كل أخطائه في الطبعة السابقة وطلب من القراء والأدباء والباحثين الذين لديهم تلك الطبعة أن يصححوها بالمقارنة بهذه الطبعة الجديدة أو يستغنوا عنها نهائيا وأنه براء من كل ما ينسب إليه بعد ذلك في تلك الطبعة .

قلت للأستاذ السالم : هذا هو محمود محمد شاكر أبرز وأشهر وأقدر محققي كتب التراث ولكن لا يعرف الفضل أو العلم إلا أهله !

أما هؤلاء الزعانف الذين يحسبون أنفسهم على العلم والأدب فهم أضيق الناس صدرا أو ذرعا بنقد النقاد وملاحظاتهم وتصويباتهم لأنهم يرون في ذلك عدوانا عليهم وكشفا لدخائلهم وفضحا لجهلهم وتسفيهاً لآرائهم وتطامنا مع غرورهم .

أما الحقيقة فهي أن فضل النقد على العلم والأدب لا تقاس بقدر أو قيمة ، ذلك لأن العلماء والأدباء شأنهم شأن غيرهم من سائر البشر عرضة للخطأ والصواب وفوق كل ذي علم عليم .. وليس هناك أدنى ضير .. بل من الواجب على كل ذي علم أن ينبه غيره إلى ما قد يقع فيه من أخطاء عن جهل أو غير

قصد أو سبق خاطر .. ولنا في السلف الصالح أعظم قدوة في هذا المجال وغيره .

وأقرب مثال خطر في بالى الآن هو ذلك الموقف الشهير الذى وقفته (امرأة) مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان قد خطر له أن يعالج في خطبة الجمعة أو إحدى خطبه في المسلمين موضوع المهور وكأنه رأى أن يحدد مهرا معينا كحد أقصى للمهور .. فما راعه إلا صوت امرأة من خلف الصفوف تقول له :

هيه ياعمر .. فما تقول فى قول الله سبحانه وتعالى (لو آتيتم إحداهن قنطارا الآية) .. فوجم عمر رضى الله عنه .. ثم قال :

الله أكبر .. حتى النساء أفقه منك ياعمر — يخاطب نفسه — وعدل عن رأيه ذاك بشأن المهور والأمثلة من هذا القبيل كثيرة جدا وهي في شئون الأدب أكثر وأكثر !!

وأنا شخصيا أعتقد أنه حيث يكون النقد الجيد يكون العلماء والأدباء أكثر حرصا على التجويد والدقة والتحرز .

أما فى حالة غياب النقد كما هو حاصل عندنا الآن فيكون الخلط واللت والعجن ونشر كل ما هب ودب باسم الأدب وعلى ذمة الأدباء .

وأعود فأذكر مثالا آخر على فضل النقد على العلم والأدب فقد قام أحد المحققين وأظنه الدكتور صلاح الدين المنجد — إن لم تخنى الذاكرة — بتحقيق أحد كتب التراث ، (لا أذكره على وجه الدقة) . فأنا أكتب هذا الموضوع في مكتبي بالجريدة معتمدا على ذاكرتي بعيدا عن كتبي وكناشاتى .

وتم تحقيق ذلك الكتاب وطبعه ونشره وتداوله بين الناس .. بل وأصبح مرجعا مهما من مراجع الباحثين .

ولكن بعد ذلك وبكل بساطة يأتي أحد النقاد فيكشف أن حوالى عشرين ورقة من الكتاب ليست من أصل الكتاب نفسه ذلك لأنها تضمنت تراجم

لأشخاص توفوا بعد وفاة المؤلف نفسه .. فلا يعقل بالطبع أن يترجم المؤلف لأشخاص يذكر تاريخ ميلادهم وتاريخ وفياتهم بعد وفاته هو ولكن الذى يبدو كما أشار ذلك الناقد النابه أن أحد الذين اقتنوا مخطوطة ذلك الكتاب قد أراد أن يضيف إلى نسخته من الكتاب بعض تراجم الأشخاص المجانسين لأولئك المترجم لهم في الكتاب نفسه ويبدو أنه قد ضم وريقاته الجديدة إلى نسخته دون أن يشير إلى ما فعل .. فجاء المحقق الفاضل ليصادف هذه النسخة بالذات وكأنه لم يجد غيرها أو لم يهتم بالبحث عن غيرها كأدنى شروط التحقيق فكان لابد أنْ يقع في ذلك الخطأ الفادح الذى لولا النقد ونباهته لما كان فضل هذا الاكتشاف الخطير في أهم كتاب من كتب التراث الأدبي .

وهكذا فان فضل النقد على العلم والأدب لا ينكره إلا جاحد أو مكابر أو .. أولئك الذين يدعون العلم والأدب .. فينكرون فضل النقد لأنهم يخشون سطوته وبأسه . فهم فى عداء له ..

ومادمنا في سيرة النقد والنقاد .. فلا بأس أن نفاكه القراء بعد هذا الموضوع الطويل الجاف ببعض الطرائف واللطائف المتعلقة بالنقد والنقاد .. وسأختار هنا طائفة من الروايات اللطيفة التي تنم عن حس مرهف ونكتة لاذعة وبديهة حاضرة .. وليس لي في ذلك غير فضل الجمع والاختيار .

• أنشدت ــ بضم الألف ــ سكينة بنت الحسين قول الحارث بن خالد :

ففرعن من سبع وقد جهدت لاحشاؤهـن موائـل الخمـــر

فقالت : أحسن ذلك عندكم ؟

قالوا : نعم .

قالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشاؤها .

• أنشد نصيب الشاعر وهو مولى أسود اللون قوله :

وكدت ولم أخلق من الطير إن بدا لها بارق نحو الحجـــاز أطير

فسمعه ابن أبي عتيق فقال له : يا ابن أم .. قل (غاق) فانك تطير .. يعني أنه غراب أسود !!

• غنت مغنية وابراهيم المهدي حاضر (من رآى نوقا غدت سحرا) فقال ابراهيم أنـــا رأيت هذا ..

قيل له : وأين رأيته أيها الأمير .. ؟

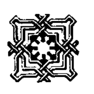
قال : رأيت ولد علي بن ريطه يمضون في السحر إلى الصيد !!

• عندما سمع ابن أبي عتيق قول ابن قيس الرقيات :

تقدمت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلهـــا ونهارهـــــا

يقصد ناقته ــ قال ابن أبي عتيق : كانت هذه يا ابن أم في ما أرى عمياء !!

البلاد ١٣٩٤/٥/١٥ هـ





الكتابة عن الأديب حيا !

كثيرا ما طرح هذا السؤال في صحفنا وبين أوساطنا الأدبية .. وهو :

هل تجوز الكتابة عن الأديب الحي ؟!

ولكن بصيغة أخرى وهي : إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب في ذاته أو حياته الخاصة عند تناول أعماله وآثاره الأدبية ؟

وبالطبع اختلفت الآراء وتضاربت كثيرا حول هذه النقطة بين مؤيد ومعارض .. بين مؤيد لإباحة شخص الأديب وحياته الخاصة لمشرحة النقاد ومباضعهم بحجة أن الأديب منذ اختار الأدب .. أو منذ أدركته حرفة الأدب كتعبير القدامى .. لم يعد ملكا لنفسه وأن حياته الخاصة لابد أن تنعكس بصورة أو بأخرى على انتاجه ومن ثم فان تناول انتاجه يحتم بالضرورة تناول حياته الخاصة وغير الخاصة لمعرفة مدى تأثيرها على مسار تفكيره وانتاجه !!

وبين معارض يرى أن شخص الأديب وسلوكه وحياته الخاصة يجب أن تبقى بمأمن عن تناول النقاد بأية صورة كانت !!

وأن يكون الأثر وحده هو موضع النقد والتناول بصرف النظر عن تأثير أو عدم تأثير حياة الأديب على انتاجه وفنه .

وأذكر أنني كنت ذات ليلة عام ١٣٨٦ هـ ضيفا على أسرة الوادي المبارك بالمدينة المنورة وعميدها الصديق الكبير الأستاذ عبد العزيز الربيع وقد احتشد الأعضاء الأدباء في ناديهم العامر بمنزل الأستاذ الربيع وطرحت الكثير من موضوعات النقاش الفكري والأدبي . وأذكر أنني طرحت هذا الموضوع نفسه للنقاش وهو : إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب ذاته أو حياته الخاصة عند

تناول آثاره وأعماله الأدبية ؟ وقد أجاب معظم الحاضرين على السؤال واختلفوا بالطبع حول الموضوع مع تفاوت في درجات الاختلاف .. وأذكر أن الأستاذ عبد العزيز الربيع وهو الناقد الكبير قد أشبع الموضوع ليلتها تناولا من مختلف جوانبه وكنت سجلت كل ما قيل عن الموضوع ليلتئذ وهو حصيلة وافرة وجيدة ولكن مع الأسف الشديد فقدت كل ذلك لطول المدة ولأنني لم أتمكن من نشر ذلك النقاش في حينه لأسباب ليس هنا مجال ذكرها !!

والمهم أن موضوع تناول أو عدم تناول حياة الأديب عند تناول آثاره من الموضوعات المثارة دائما على بساط النقاش عند كل مناسبة !

ولكن جريدة الأنوار اللبنانية وهى ذات اهتمام ملحوظ بالنواحي الأدبية طرحت الموضوع على شكل استفتاء وبصورة أخرى هي بالتحديد (هل تجوز الكتابة عن أديب حي ؟) (العدد ٥٠٣٤ فى ١٢ تشرين الثانى ١٩٧٤ م) .

وأوضحت فكرة الاستفتاء هذه بمقدمة قصيرة قالت فيها : (هل تجوز الكتابة عن أديب حي ؟ وهل يمكن أن نعطى تقييما لأعماله الفنية يأخذ شكل دراسة أكاديمية موضوعية ، مستفيدين من قربنا الزمنى من هذا الأديب مما يساعدنا على القبض على حرارة العمل الفني وعلى فهمه واستيعابه من منظور الواقع الراهن أم نكتفي بالتركيز على الأدباء الراحلين مستفيدين من عامل الوقت ومن توفر الدراسات والمراجع حول هؤلاء ومن العامل الأهم وهو تحرر الدارس أو الناقد من ارتباطات شخصية أو مصلحية قد تجمعه بالكاتب ومن خطر الخوف من الاساءة إليه .

ذلك هو السؤال الذى طرح نفسه في أكثر من مناسبة وعلى أكثر من صعيد .

وقد أجاب على السؤال الأستاذ أحمد أبو حاتم رئيس شعبة اللغة العربية في كلية التربية بالجامعة اللبنانية .. ثم الدكتور ميشال عاصى أستاذ الجماليات في كلية التربية أيضا .

ومن عجب أنهمااتفقا تقريبا على أنه لابد من الاهتمام بدراسة ونقد آثار الأدباء الأحياء لإيجاد (حياة أدبية تضج بالحركة وأنواع التفاعل والصراع) !

واتفقا أيضا مع ذلك على صعوبة دراسة آثار الأديب الحي حيث تحفّه عادة كما يقول الدكتور ميشال عاصي ـ « بعض المخاطر والصعوبات في التصدي لدراسة مؤلفات أديب حي .. أو آثار كاتب ما يزال حضوره الشخصي في الحياة يشكل عقبات لايستطيع تجاوزها إلا من اتسم بالترصن الكبير والشجاعة الفائقة والموضوعية التى لا تؤخذ إلا بالحقيقة والعلم » !!

« وإن تناول أديب حي يقتضى من الباحث أن لا يرعى الحضور الشخصي للأديب كما يقتضيه أن يتجاوز ما هو سائد حوله من أحكام هي في أكثر الأحيان نتيجة لعلاقة الأديب الشخصية لا لقيمة أدبه وانتاجه » .

ولعله لهذه الأسباب أو غيرها اجتمع رأى الاثنين أيضا على أنه لا بأس من « دراسة آثار الأدباء وتحليلها ونقدها في محاضرات أو كتابات صحفية في الجرائد والمجلات أو في مؤلفات خاصة أو عامة » .

أما « اتخاذ آثار الأدباء الأحياء وأصحابها موضوعات لرسائل علمية جامعية » فقد اتفق الاثنان على أن ذلك لا يجوز أو غير ممكن تقريبا لأنه من الصعب أن تتوافر شروط المنهجية العلمية الصحيحة التى تقتضى من الدارس كل « تجرد عن الأهواء والعواطف والنزوات والميول والأمانة العلمية .. والاستقلال بالبحث والاخلاص للحقيقة فيه وتعزيزه بكل ما هو ثابت واضح أكيد » .

« ومن الصعب أن تتوافر هذه الأمور كلها في دراسة آثار الأدباء الأحياء لاسيما إذا كان بين الدارس والمدروس علاقات صداقة ومودة وتقارب في النزعات والميول السياسية والأدبية والفكرية أو علاقات عداوة وتنافس وتعارض في الأفكار والأهواء والميول » .

ويضيف الدكتور ميشال عاصى :

« وفي خبرتي الشخصية أن معظم الطلاب عاجزون عن الرؤية الموضوعية الشجاعة الرصينة في دراسة آثار الأدباء الأحياء » .

ذلك هو خلاصة رأي أستاذين أكاديميين في موضوع تناول آثار الأدباء الأحياء .

وطرح الموضوع على هذا النحو يجرنا بالضرورة إلى السؤال الذي أشرنا إليه في مطلع هذا المقال وهو : إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب في ذاته أو حياته الخاصة عند تناول أعماله وآثاره الأدبية ؟!

وقد أشرنا آنفا أيضا إلى مدى الاختلاف حول إباحة ذلك أو عدم إباحته .. ولكن مايزال السؤال قائما وهو إلى أي مدى يمكن الإباحة أو عدم الإباحة ذلك لأن الذين يرون الإباحة ربما يكون لهم بعض التحفظ في جانب آخر .. كما أن الذين يرون عدم الإباحة ربما سمحوا ببعض التناول في حدود معينة .

ولكن الشيء المؤكد في نظر النقد الصحيح هو أن دراسة حياة الأديب أو جوانب منها ـــ على الأقل ـــ ضرورة ملحة .. أو وسيلة مساندة لامكانية تقييم آثاره الفكرية والأدبية .. وهذا ليس محل خلاف بل الخلاف ينحصر في التخوف مما يمكن أن يلحق بالأديب ـــ وخاصة الأديب الحي ـــ من إساءة أو ما يمكن أن يعتبر تجريحا عند تناول آثاره وحياته بشيء من الصراحة المطلوبة بالضرورة في أي نقد أدبي ؟!

ومن هنا أصبح الموضوع ليس هو جواز أو عدم جواز تناول حياة الأديب من خلال تناول حياته كما هو المنهج النفسي الحديث في النقد الأدبي وإنما هو ـــ أي الموضوع ـــ مدى امكانية أو عدم إمكانية تناول آثار أديب حي بالصراحة والمنهجية العلمية المطلوبة لما يمكن أن يشكله وجود هذا الأديب من عقبات أو محاذير في وجه النقد الصحيح الصريح البعيد عن أي هوى أو غرض أو ميول !

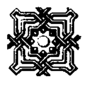
وإني .. لأعجب بل لا أكتم إنكاري على المشفقين لأسباب انسانية أو غيرها على الأدباء الأحياء أن تكون حياتهم عرضة للتناول عند تناول آثارهم وأفكارهم .. فاذا مات هذا الأديب لا بأس من ذلك التناول بحجة البعد عن الهوى والغرض !

إنني أعتقد أن تناول حياة وآثار الأديب في حياته أجدى وأكثر انصافا للأديب نفسه منه بعد مماته ، بحيث يمكنه ــ وهو على قيد الحياة ــ أن يدافع عن نفسه أو يدافع عمن يريد الدفاع عنه من معاصريه فتكون الحقيقة في شأن هذا الأديب أقرب إلى الوضوح منها بعد مماته .

أما الأسباب الانسانية والخوف من الاحراج أو التجريح أو نحو ذلك فانها أشد على الأديب بعد مماته ومنافاة واضحة لنصيحة ذكر الموتى بالمحاسن !!

وعلى كل حال فانني أطرح الموضوع على بساط البحث وستنشر هذه الصفحة كل رأى يردها حوله[1] ويسعدنى أن أدعو ــ بصورة خاصة ــ أديبنا الكبير وناقدنا المعروف الأستاذ عبد العزيز الربيع للأسباب التى أشرت إليها فى مؤتنف مقالى هذا .

البلاد ١٣٩٤/١١/٢ هـ



---

(١) المقصود بالصفحة ، صفحة (أدب وأدباء) التى كنت أشرف على تحريرها فى جريدة البلاد حينذاك .

ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية ؟

يحفل تراثنا الأدبي والتاريخي بآلاف الكتب والمصادر والمراجع المشتملة على الكثير من الروايات والنصوص مبعثرة في تلك الآلاف المؤلفة من كتب التراث المطبوع منها أو الذي مازال مخطوطا ينتظر دوره في التحقيق والنشر .

وهذه الألوف من الكتب الزاخرة بالكنوز الأدبية والتاريخية ألفت بالطبع في فترات مختلفة على امتداد تاريخنا الحافل وهي لذلك متفاوتة في مناخها وأساليبها وطرائق تناولها ومدى تحريها للصواب من عدمه ومدى الحوافز والمؤثرات والدوافع الكامنة وراء تأليفها .. الأمر الذي يجعل الاستفادة منها تبدو مستحيلة تقريبا لغير الباحثين الدارسين المختصين .

ولقد تطورت مناهج البحث التاريخي والأدبي في عصرنا الحاضر وأصبحت على جانب كبير من تحري الدقة والصواب والافادة .

ولاشك أن أية دراسة منهجية حديثة لأية فترة من فترات التاريخ أو لأي موضوع من موضوعات الأدب من شأنها أن تفيد قراء العربية في ذلك الموضوع أكثر بكثير جدا مما لو كان الشأن متروكا للقارىء ليبحث بنفسه عن ذلك في أمهات كتب الأدب والتاريخ .

ولاشك أيضا أن اختلاف المناهج وأساليب وطرائق التناول في الكتب القديمة يشكل عائقا كبيرا دون الافادة منها على الوجه المطلوب — كما أسلفت — الأمر الذي يحتاج بالضرورة إلى مزيد من الدراسات المنتظمة لمختلف جوانب تراثنا التاريخي والأدبي لكي نستطيع أن نضع بين يدي القارىء الحديث ما يمكن أن يفيد منه ولربما يدفعه إلى البحث والتنقيب والاهتمام بالتراث .

ومن حسن الحظ أن هناك الكثير من الجهود المبذولة في سبيل تحقيق التراث ونشره ومن ثم دراسته من مختلف نواحيه وقد حفلت المكتبة العربية بالكثير من الدراسات القيمة والتحقيقات المفيدة الجديدة .

ولكن مما يؤسف له حقا عدم وجود أدنى تنسيق بين هذه الجهود المبذولة في مختلف الدول العربية سواء على صعيد الجامعات والمحافل العلمية أو على صعيد المجهودات الفردية لأنه ربما لا توجد هناك أية وسائل فعالة لتبادل المعلومات بين المختصين بتحقيق التراث ونشره ودراسته في مختلف أنحاء الوطن العربي .

ولذلك كثيرا ما يصادف أن تقوم إحدى الجامعات أو الجهات أو الأفراد بتحقيق ونشر كتاب معين سبق أن قامت إحدى الجامعات أو الجهات أو أحد الأفراد بتحقيقه وطبعه ونشره وربما يتكرر ذلك كثيرا في أكثر من مكان من أنحاء الوطن العربي .

والأمر نفسه يحصل كثيرا بالنسبة للدراسات أيضا حيث تتكرر الدراسات عن الموضوع نفسه بين أكثر من جهة أو مؤلف .

كان بالامكان تفادي مثل هذا التكرار وبعثرة الجهود لو أن منظمة الثقافة في الجامعة العربية تضطلع بمسؤوليتها بشكل فعال وتقوم بجمع المعلومات الخاصة بأمثال هذه الجهود وتوزيعها دوريا أو شهريا على الجامعات والمحافل العلمية وكبار المعنيين بالتراث والدراسات .

وعلى كل حال فهذه ملاحظة هامشية بالنسبة لموضوعنا هذا (ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية) .. ولكنها ملاحظة مهمة لتثبت أسس هذه الدراسة الأدبية والتاريخية التى نريدها إذ لابد من وضع هذه الأسس التى يمكن عن طريقها تنسيق الجهود بين مختلف الجهات والمختصين لتحقيق أقصى درجة ممكنة لافادة المكتبة العربية دون الوقوع في البلبلة نفسها أو التشتت نفسه الذى يعانيه تراثنا بين كتاب وآخر .. بل بين كتب وأخرى .. الأمر الذى لابد أن يحوجنا في النهاية إلى دراسة الدراسات .

ونعود الآن إلى موضوعنا ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية ؟

إن المرحلة التي تمر بها أمتنا المجيدة تشير كل دلالاتها على أنها على وشك استعادة دورها الحضاري العريق ومن ثم فهي على وشك أيضا أن تستعيد تأثيرها الكبير على الصعيد الأممي !!

ولذلك فان دور الدراسات الأدبية والتاريخية لأية أمة تمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة التى تمر بها أمتنا لابد أن تأخذ في حسابها ليس فقط النهج الأكاديمي للدراسة والتحقيق .. بل تأخذ إلى جانبه ضرورة ربط منطلقات الحاضر بجذوره التاريخية بشكل يصل الماضى بالحاضر على نحو تبدو معه الرؤيا المستقبلية واضحة شديدة التطلع .

لا يكفى مثلا أن ندرس العصر الأموي من أجل مجرد دراسته فقط .. بل لابد أن نتخذ من أسباب سقوطه مثلا وجها لمقارنة بينه وبين أي شبه ممكن له في حاضرنا .. فينبه الدارس إلى مزالق ذلك الشبه وهكذا !!

والأمر نفسه يجب أن يكون في الدراسات الأدبية أيضا حيث ينبغي أن نعرف كيف ازدهرت الحركة في العصر العباسى وكيف سقط في العصر البويهي مثلا ونبحث عن أوجه الشبه في حاضرنا بين الدوافع أو الأسباب التي أدت إلى ازدهار الأدب في العصر العباسي وسقوطه في عصر بني بويه ، وننبه إلى مدى إمكانية تكرار أسباب السقوط أو الازدهار .

ومن المعروف أن الأسباب نفسها ربما لاتتكرر بذاتها ولكن بأشباهها .. فاذ كان من أسباب ازدهار الأدب في العصر العباسي مثلا أن الخلفاء والأمراء وسرا القوم كانوا على جانب كبير من العناية بالأدب وإغداق الجوائز والأموال وأسباب التشجيع والتكريم على الأدباء فليس معنى ذلك أن نطالب الملوك والرؤساء الآن بمثل ذلك .. بل نطالب وزارات المعارف والجامعات ومجالس الفنون والآداب وغير ذلك من الجهات المختصة بمثل ذلك .

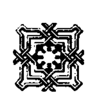
وإذا كان من أسباب سقوط الأدب العربي فى عصر بنى بويه أو غيره من

العصور هو (الشعوبية) مثلا أو أي سبب آخر فيجب أن ننبه إلى مدى إمكانية تكرار ذلك بنحو أو بآخر بحسب ظروف عصرنا .

وتلك مجرد أمثلة متواضعة المقصود بها إيضاح ما نريده من الدراسات الأدبية والتاريخية الحديثة وإلا فهناك الكثير من الأمثلة على ذلك .. على أن هناك من جوانب الدراسات ، ما ربما لا يحتاج إلى كل ذلك كالدراسات اللغوية والمعجمية ونحو ذلك مما يكفي معه مجرد العمل على تنسيقها وترتيبها والاضافة عليها وفقا للمناهج العصرية الحديثة وأعتقد أن خير حافز لايجاد الدراسات الجادة المفيدة .. بل لايجاد نوع من حبها وتذوقها بين صفوف أجيالنا هو التوسع في تدريس مناهج البحث الأدبي والتاريخي في الجامعات العربية بل وفي المدارس أيضا وإلزام الطلاب بمعاناة البحث والتحقيق على نحو جدي مع البعد كل البعد عن الأساليب العتيقة في التلقين وحشو الأدمغة بالنصوص والمختارات دون إيجاد رابطة شعورية بين الطالب والنصوص وهذه الملاحظة لاتزال قائمة عندنا مع الأسف وخاصة في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية حيث البون شاسع جدا بين كثير مما يدرسه الطالب وبين مشاعره وأحاسيسه وفهمه وواقع عصره .

وتلك أيضا مجرد ملاحظة على هامش الموضوع ولكنها شديدة الصلة به .

البلاد ١٣٩٤/١١/١٧ هـ



نحنُ والتراث !

كيف يمكننا أن نفيد ونستفيد حقا من تراثنا الضخم ؟

سؤال طالما رددته على نفسي وكررت القول عنه في أحاديثي وكتاباتي المتواضعة .

إن هناك الكثير من العوائق التي تحول دون استفادتنا الصحيحة من تراثنا الضخم هذا .. ومنها على سبيل المثال :

○ كون تراثنا في معظمه عبارة عن روايات وأحاديث مسندة وغير مسندة . حتى تراثنا الشعري القديم قد وردنا عن طريق الرواية أيضا من صدور الرجال

○ اختلاف وتعدد وتباعد مناهج التأليف عن بعضها البعض في مختلف العصور منذ بدء التدوين إلى الآن .

○ ماتعرض له تراثنا ــ على مر العصور ــ من دس وتشويه على أيدي بعض الفرق المتناحرة .. أو على أيدى الدساسين المشهورين من الشعوبيين وغير الشعوبيين من أعدائنا .

○ السلب والنهب والحرق والضياع الذي تعرض له تراثنا كما هو معروف . وإلى حد أن الكثير من كتبنا التراثية المهمة ماتزال مشتتة في مكتبات العالم دون أن تحظى باستعادتها وتحقيقها ونشرها .

○ الأخطاء الشنيعة التى ارتكبت ــ عن قصد أو غير قصد ــ فيما تحقيقه ونشره من هذا التراث .

تلك بعض النقاط ــ فضلا عن غيرها ــ وهي نقاط أو أسباب كفيلة بعد استفادتنا من تراثنا الضخم على الوجه الصحيح .

وسنتحدث الآن عن هذه النقاط ببعض التفصيل ، بعد أن ذكرناها بايجاز غير كاف .

ولنبدأ بكون تراثنا فى معظمه عبارة عن روايات مسندة ، وربما غير مسندة !!

ومعروف أن مجرد السند في الرواية لا يجعلها في مصاف الحقيقة إلا بعد معرفة تامة برجال السند في كل رواية ، ومدى حظهم من الصدق والثقة بهم .. وكان هذا أمرا ميسورا عند الكثير من القوم في صدر الاسلام ، وعند بدء التدوين حتى أن أكثر المؤلفين أو المدونين كانوا يدونون الكثير جدا من الروايات المكذوبة ، وهم يعلمون أنها مكذوبة .. وذلك لمجرد أنهم ذكروا سند الرواية ، وأن ذلك كان في نظرهم كافيا لتمييز صدق الرواية من كذبها اعتمادا على معرفة الناس بذلك .

ولكن بعد أن كثرت الروايات واختلط بعضها ببعض وضعف علم القوم برجال السند ، وكثر الخلط والكذب في الروايات .. بل وحتى في الأحاديث الشريفة ذاتها .. عندئذ تنبه رجال الحديث ــ بصفة خاصة ــ فانبرى منهم الجهابذة ليضعوا القواعد والأسس لعلم الرواية والرواة .. أو ما نسميه الآن (مصطلح الحديث) .. وبذلك نجا الحديث أو نجت الرواية عن رسول الله ﷺ إلى حد كبير .. وأصبحنا ــ إلى الآن ــ نستطيع عن طريق علم (مصطلح الحديث) أن نميز الخبيث من الطيب ، والصدق من الكذب .. وأن نعرف الشيء الكثير عن رجال السند في الحديث عن رسول الله ﷺ .

أما فى مجال التاريخ والأدب .. فلم يكن الحظ فيه كما كان الحظ بالنسبة للأحاديث الشريفة .. حيث لم ينبر الجهابذة من رجال التاريخ والأدب لوضع قواعد مشابهة لتلك التى وضعت للحديث الشريف فبقيت الروايات التاريخية والأدبية على ما هي عليه من غير عناية تذكر من قبل رجال الأدب والتاريخ .. وإن كنا لم نعدم تعقيبات أو تعليقات من بعضهم على بعض الروايات ، لكنها ــ لقلتها ــ لا تغني شيئا بالنسبة لذلك العدد الضخم من الروايات المسندة وغير المسندة .. أو الملفقة السند أصلا .

وقد كثر التلفيق ــ بخاصة ــ وعمّ وطمّ عندما أصبحت الرواية ذاتها ــ وخاصة في مجال التاريخ والأدب ــ مصدر رزق للكثير جدا من الرواة في دواوين الخلفاء والكبراء وسراة القوم .. وعندما تفرق الناس أحزابا وشيعا .. كل فريق يأتي بروايات ــ صدقا أو كذبا ــ يسند بها مزاعمه ودعاواه وتعصبه .

وبذلك كثرت وتضخمت الروايات الأدبية والتاريخية وظهر فيها التلفيق إلى الحد الذي لم يعد يدهشنا أن نجد في كثير من كتب التراث الروايات الواضحة الصنع والتلفيق والكذب .

وهذا أمر لاشك يجهد الباحثين الآن في تراثنا أي جهد .. ولو اقتصر الأمر على الباحثين المتمكنين لهان الخطر .. ولكن الخطر الأكبر في كل ذلك إنما هو على جمهرة القراء الذين لا يستطيعون تمييز الخبيث من الطيب . وهؤلاء ــ أقصد أنصاف المثقفين ــ يحسبون كل ما يرد في الكتب القديمة لابد أن يكون صحيحا فهم في حيرة بين التصديق والتكذيب .. بين المعقول وغير المعقول فيما يقرأونه من روايات .

بل إن بعضهم ممن يتعاطى الكتابة في الصحف .. كثيرا ما يستشهدون بروايات وجدوها في الكتب القديمة ليدعموا بها رأيا حديثا لهم دون أن يفطنوا إلى إمكانية أن تكون تلك الرواية مكذوبة من أساسها !!

بل إن هذا الخلط والتلفيق في كثير من الروايات قد أفاد منه أعداء العروبة والاسلام أي فائدة عندما استندوا إليها في توجيه سهامهم ونبالهم إلى الاسلام وأهل الاسلام .

وأما اختلاف مناهج التأليف ، وتعدد أغراضه .. فهو أيضا سبب آخر من الأسباب المهمة التى أوجدت البلبلة والاضطراب في تراثنا .. فهناك ــ على سبيل المثال ــ الكثير جدا من الكتب التراثية الضخمة التى ألفت لخلفاء أو أمراء أو وزراء ، وكان القصد من تأليفها أصلا هو الترفيه أو التسلية .. أو كانوا يقولون : (الامتاع والمؤانسة) .. ولا أقصد هنا بالذات كتاب (الامتاع

والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدى .. بل هناك مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج وغيره وغيره من الكتب المشابهة .. وقد احتشدت فيها روايات ، وقصص ، وأشعار ، وسير ، ومغاز ، وتواريخ .. لا يعلم إلا الله مدى صحتها .

أما المؤلف .. فلم يكن يهمه غير سرد أكبر قدر ممكن من الروايات ، والقصص ، والأخبار ، والأشعار التى يمكن أن تدخل السرور على قلوب أولئك المترفين .. فقد كان مثل هذا من أهم وسائل التسلية حينذاك !!

وناهيك بمؤلف أو مؤلفات .. يكون الغرض منها أساسا ما أشرنا إليه .. ثم يصبح فيما بعد .. أو في عصرنا الحاضر حجة في التاريخ والأدب لمجرد كونها من كتب التراث القديمة !

نعم .. إنه يوجد حتى في هذه الكتب التى أشرنا إليها ما يمكن اعتباره حجة .. ولكن ليس على اطلاقه ولا لمجرد كونه قد جاء في كتاب قديم .. بل أن ما يمكن اعتباره حجة لا يمكن أن يكون كذلك إلا بعد اخضاعه لمقاييس ومعايير ، يعرفها رجال البحث والتحقيق والتدقيق .. وأما بدون ذلك فلا !!

وهذا يجرنا إلى الحديث عن نقطة من النقاط التى أشرنا إليها في مطلع هذا الموضوع ، وهى (الأخطاء الشنيعة التى ارتكبت ــ عن قصد أو غير قصد ــ فيما تم تحقيقه ونشره من تراثنا) .

ذلك أن الكثير مما تم نشره من كتبنا التراثية .. لم يكن الدافع لتحقيقها ونشرها غير الدافع التجارى البحت .. وقلة قليلة هي تلك الكتب التي حققت تحقيقا علميا صحيحا من قبل هيئات علمية أو علماء بارزين .. ثم تم نشرها بعد ذلك على الوجه الصحيح .

أما الكثرة الكاثرة فقد حققت ونشرت بدافع تجاري ــ كماأسلفنا ــ ولذلك جاءت حافلة بالأخطاء والنقص والتطبيع بصورة تقلل كثيرا من فرص الاستفادة منها حتى لدى المتخصصين من رجال البحث والتحقيق .. فكيف بجمهرة القراء ؟

وقد وصل الأمر بتجار نشر الكتب التراثية أن أدخلوا بعضها في بعض ــ جهلا منهم أو طلبا للسرعة ــ بل حذفوا الفصول وأضافوا الفصول .. ولم يدققوا في النصوص .. ولم يراجعو المزيد من النسخ أو الأصول .. بل ربما اكتفوا بنسخة واحدة .. أو أصل واحد .. وجعلوه أساسا لكتاب يطبع وينشر على أساس أنه من كتب التراث المحققة المدققة .

وهذا أيضا من الأسباب الخطيرة التى أثارت الاضطراب في كثير من كتبن التراثية المطبوعة .

وقصارى القول .. وبدون أن نأتي على جميع النقاط التي أشرنا إليها في صدر موضوعنا هذا .. فان الحديث عن التراث يطول ويتشعب ..ولا يتسع لنا هن المزيد من الخوض فيه .

ولكننا نقول ــ باختصار شديد ــ أننا لا يمكن أن نفيد من تراثنا بصور صحيحة سليمة ما لم تتهيأ له عناية ضخمة من قبل الجامعات والدوائر العلمي ورجال البحث الموثوقين .. وما لم ينفق بسخاء كبير من قبل الحكومات على أسباب التحقيق والتدقيق والنشر الصحيح لتراثنا الضخم هذا .

وهنا لابد أن نشير إلى وزارة التعليم العالي في بلادنا ودورها الكبير والخطير جد في هذا المجال ، ليس لكونها مجرد وزارة للتعليم العالى .. بل لكونها كذلك ف المملكة العربية السعودية بالذات .. مهبط الوحي ، ومنبع هذا التراث الضخ فمسؤوليتها لذلك مضاعفة .. بل ويزيد من هذه المسؤولية كون المسؤول الأول ع هذه الوزارة هو معالى الشيخ حسن آل الشيخ .. وهو من هو .

والله من وراء القصد ،

المجلة العربية (رمضان ١٤٠٢ هـ)



كيف نتذوق التراث ؟

معظم تاريخنا الاسلامى والجاهلي قد كتب على شكل أخبار وروايات تجمعها
الكتب جمعا دون رابطة بين خبر وآخر أو رواية وأخرى .. وإنما هى متناثرة
لا تربطها وحدة ولا يحدها منهج .

وإنك لتجد الكثير من الأخبار ينقض بعضها بعضا في كتاب واحد أو يربو
بعضها على بعض في الكتاب نفسه وقل أن تجد فى الكتاب تنبيها على ذلك أو
إيماءة إليه .

وإنك لتجد التكرار الممل عند قراءتك لكتب التاريخ والأدب بما تحفل به من
أخبار وروايات هي نفسها مكررة بنقص أو زيادة أو بالنص في كتب أخرى ..
فهذا ينقل عن ذاك ، أو يصادف أن تتصل نفس الرواية بهذا المؤلف أو ذاك ومن
هنا ينشأ التكرار الممل فأما سوء المنهج في ترتيب هذه الأخبار والروايات فحدث
ولا حرج .. تجد خبرا عن خليفة أموي مثلا وتجد إلى جانبه خبرا عن النعمان بن
المنذر ثم ربما تجد ثالثا إلى جواره عن إحدى الجواري . أو خبرا عن إسحاق
الموصلي وقل أن تجد أخباراً مرتبة حسب وحدة موضوعها أو حسب تسلسلها
التاريخي اللهم إلا فيما ندر !!

ولعل أكثر الكتب التاريخية دقة في المنهج هي كتب التراجم والسير فهذه سير
الصحابة مثلا فى كتاب (الاصابة) أو (الاستيعاب) مثلا وهذا معجم
للأدباء .. الخ .. الخ .

وهناك أيضا كتب المغازي لا بأس بمنهجها في الترتيب !!

أما ما عدا ذلك فهي كما أسلفت من سوء عرض وشتات مذهب !!

وقد زاد الطين بلة فوضى المحققين والناشرين في اختيار وطبع ونشر الكتب لتراثية فانهم لا ينظرون إلى الأهم فالمهم وهل سبق للكتاب الذي اختاروه أن حقق ونشر أم لا إلى غير ذلك مما ينبغى أن يكون من تنسيق بين جهود المحققين والناشرين في العالم العربى وغير العالم العربى .

ذلك لأن النشر أصبح تجارة فلحق به التحقيق أيضا ، بل أصبحت هنالك متاجرة كبيرة بالمخطوطات .

وكل ذلك وغيره قد ساعد كثيرا على الاساءة إلى تاريخنا وتراثنا بطريقة أو أخرى !

وفي يقيني أن هذا التراث العظيم من كتب التاريخ والأدب لا يمكن أن يفيد منها إلا الباحث المنقب الذي أفنى عمره وأعشى بصره في النظر إلى الكتب !!

أما الناشىء في طلب العلم فانه سيجد نفسه في متاهة حقيقية لأول لها ولا آخر .. بل ربما وجد نفسه في خضم متلاطم الأمواج من هذه الأخبار والروايات التاريخية والأدبية المكررة في معظم كتب التراث وفي كتب الدارسين والباحثين المحدثين أيضا !!

وإن ذلك كله وغيره قد ساعد على عزوف هذه الأجيال عن كتب التراث لأنهم لا يستطيعون الافادة منها على نحو منظم ميسور لأن الشقة قد باعدت بين هذه الأجيال وتراثها المتوارث فقد قلّ عند هذه الأجيال تذوق التراث .. بل أصبح مثار سخرية وتنكيت وتبكيت فكيف إذن نستطيع أن نجعل تذوق التراث ممكنا ؟!

وهذا السؤال جد مهمّ فى الواقع .. فالاجابة عليه من الصعوبة بمكان وخاصة في مقال عابر كهذا في صحيفة يومية سيارة .

ولكن ما يدرك جله لا يترك كله فلا بأس من الإلماح إلى بعض النقاط التي يمكن الإشارة إليها بصورة عابرة على النحو التالى :

١ ــ أن تعمد جماعة من العلماء ممولة تمويلا كافيا من الدول العربية عن طريق جامعة الدول العربية مثلا فتجمع كتب التاريخ والأدب وتحرر جميع موادها من جديد تبوبها تبويبا منهجيا حديثا حسب وحدة الموضوع أو تسلسل التاريخ أو غير ذلك من الطرق والوسائل المنهجية التى تمكّن طالب العلم أو الباحث من الرجوع إلى بغيته من أقصر طريق وأيسر سبيل .

ولا بأس طبعا أن تبقى الكتب السابقة على ما هي عليه بغية لمستزيد أو سعة لباحث .

٢ ــ أن يكون تدريس اللغة العربية في جميع المدارس والمعاهد والجامعات العربية على غير ما هو عليه الآن .. فيلتزم كل مدرس بتنمية الاحساس بجمال اللغة العربية عند طلابها عن طريق شرحها وتبسيطها وعن طريق إلزام الطلاب بالتخاطب مع الأستاذ وفيما بينهم في المدرسة باللغة العربية الفصحى ما أمكن ذلك حتى يسهل عليهم التعود على النطق السليم وينبغى أيضا تشجيع الخطابة والارتجال باللغة العربية الفصحى .

٣ ــ ينبغى أن تلتزم جميع أجهزة ووسائل الاعلام من اذاعة وصحافة وتلفيزيون باللغة العربية الفصحى والتقليل ما أمكن من هذه اللهجات التي تمزق الاحساس بجمال لغتنا الأصيلة .

بذلك ونحوه نستطيع أن نتذوق تراثنا العظيم فيكون حاضرنا على أقوى صلة بماضينا ، أما ما نحن فيه فانه يجرنا حتما إلى الانفصام عن تراثنا وماضينا كما هو حاصل الآن بالفعل إلا ما لطف ربك .

البلاد ١٣٩٤/٣/٢٥ هـ





القط والجمل والأدب !

إلى الصديق الكبير الأستاذ (أبو أسامة)[1] .

أردتنى أن أكتب موضوعا أدبيا لصفحتك المحترمة الرصينة .. فما أسهل ما طلبت ، وما أصعبه في الوقت نفسه !!

ما أسهله بالنسبة لما يكتب هذه الأيام باسم الأدب !

وما أصعبه بالنسبة لما ينبغي أو يجب أن يكتب باسم الأدب الحقيقي الذي يتوسمه أويتوخاه أمثالك ممن يتذوقون معنى الكلمة ويترشفونها .. ثم يتلمظونها بعد ذلك !!

كان الأدب — ياسيدي — كوجهي الاسطوانة .. يسجل في وجه منها الأغنية التي يراد تسجيلها فعلا ، وفي الوجه الآخر يسجل ما يراد بيعه في غمرة الرواج المتوقع للوجه الأساسى للاسطوانة .

أما الآن فيكفي فقط ، الوجه المزيف واستمر هذا .. واستمر حتى استمرئ أيضا .. بل حتى أصبح الوجه المزيف هو الوجه الأساسى للاسطوانة .

هل تذكر تلك الحكاية التى حدثتك بها مرة ، ونحن بمنزلك الصغير في (الرياض) فضحكت لها كثيرا ؟؟

إذا كنت قد نسيت فخلاصتها : أن إعرابيا نزل به داء ، فنذر إلى ربه أن يبيع جمله بدينار إن هو شفي من دائه .

ولما شفى ، عز عليه أن يبيع الجمل بالثمن البخس ، كما عز عليه ألا يفي

---

(١) أبو أسامة .. هو الأستاذ عبد المجيد شبكشي .

بالنذر ففتقت له الحيلة أن يأتي بهر (قط) ويربطه بذنب الجمل .. ثم يروح ينادي : الجمل بدينار ، والهر بألف ، ولا أبيع إلا الاثنين معا ، (يقصد التعجيز حتى لا يبيع جمله بدينار) فكان الناس ينظرون إلى الجمل ويرددون في حسرة : ما أحسن هذا الجمل لولا الهر المعلق في ذنبه !!

لقد انعكست هذه الحكاية في دنيا الأدب عندنا .. ياسيدي .

أصبح الهر هو الأضخم والأجمل والأنفع والأقوى أيضا .

وأصبح الناس يقولون : (ما أحسن هذا الهر لولا هذا الجمل، المعلق في ذنبه !!)

أرأيت ؟ ، وأنت المتذوق للثمار الأدبية اليانعة ، إنني لم أعدُ الحق أو أجانبه عندما قلت في بداية رسالتى هذه : ما أسهل ما طلبت .. وما أصعبه في الوقت نفسه .

نعم .. ليس أسهل الآن من أن أربط الجمل في ذيل قط أو حتى فأر وأصيح في الناس : الفأر أو القط بألف ريال .. أما الجمل فمن دون شيء البتة .

أما أصعب شيء الآن فهو أن أعيد الآية إلى سورتها وأربط القط بذيل الجمل وأصيح : الجمل بدينار والقط بألف .. إذ لو فعلت لما استطعت أن أجعل الناس يتحسرون على الجمل .. ذلك لأنهم سيشترون القط بالألف .. ثم يتركون الجمل وقد تركوه .

وأنت تعرف أنه لو فهم (هذا لو فهم) أحد الذين أقصدهم ، مغزى السخرية في قولى هذا لأسند يديه على جذعه وثناه .. ثم مطق لبانته ومسح غرته ، وقال : (دي رجعية خالص !!) .

أي سيدى :

وتريدني بعد ذلك أن أكتب موضوعا أدبيا لصفحتك الرصينة ؟

لا أظنك ترضى لي أن أكون أحد أمرين أحلاهما مر .

اما أن أكون في نظر جمهور الجمال قطا صغيرا حقيرا في ذيل جمل فاره ضخم .

أو أن أكون في نظر جمهور القطط الصغيرة المنمنمة ، جملا ضخما يؤذي العين منظره !!

★ ★ ★

لقد أردت أن أكون وسطا بين الاثنين .. فلم أجد إلا أن أكون ثورا أو حمارا ، وهذا ما لا ترضاه لي ، ولا أرضاه لنفسي بالطبع فماذا إذن أفعل ؟ وقد اختلفت المقاييس ، وطفّ الكيل ، وزاغ الميزان .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

البلاد ١٣٩٣/٩/٩ هـ





اللهى تفتح اللها !

كان الخلفاء والوزراء والأمراء وسراة القوم يقربون العلماء والأدباء إليهم ويدنونهم من مجالسهم ، ويفسحون لهم على موائدهم .. ويعطونهم الأعطيات الجزيلة والهدايا السخية فى غير منٍّ ولا أذى .. بل بتقرب وتودد وحسن حفاوة .. وكانوا يتخذون منهم نسّاخا لكتبهم وكتب غيرهم حيث لم تكن الطباعة موجودة آنذاك ..

وقد انعكس أثر ذلك واضحا على النهضة العلمية والفكرية والأدبية حتى كان لنا هذا التراث الضخم من الكتب في مختلف مسائل الفكر والعلم واللغة والأدب فاللّهى تفتح اللها كما يقولون .

ثم دالت هذه الدولة ، وجاءت بعدها عصور الانحطاط والتخلف إلى أن بدأت اليقظة العربية الحديثة منذ ٥٠ عاما تقريبا ، وقد بدأت أنشط ما بدأت في مصر وسوريا ولبنان .. ثم امتدت الهوينى إلى بقية الدول العربية .. فحق لنا أن نتساءل الآن :

ما هو مدى تقريب الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء لرجال العلم والأدب ؟

فأما عندنا هنا فان جلالة الملك فيصل قد اشتهر بتقريبه للعلماء وإجلاله لهم .. بل اشتهر بتقريبه للأدباء أيضا وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن بليهد رحمه الله حيث كان صديقا شخصيا لجلالته وكذلك الدكتور عبد الوهاب عزام وغيرهما .. بل كان لجلالة الفيصل الفضل الأول في تحقيق موقع سوق عكاظ من قبل ابن بليهد وعبد الوهاب عزام . كذلك كان له الفضل في تأليف كتاب (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار) لابن بليهد وغير ذلك من أفضال جلالته المشهورة المعروفة على العلم والأدب

ولاشك أن لبعض الأمراء ومنهم سمو الأمير فهد[1] وسمو الأمير عبد الله الفيصل وسمو الأمير سلمان وغيرهم فضل على العلماء والأدباء يذكر فيشكر .

وإنما نتساءل بصفة عامة عن مدى تقريب الرؤساء والأمراء والوزراء وسراة القوم في مختلف أنحاء العالم العربي للعلماء والأدباء ؟

وهو تساؤل لا أعتقد أن الاجابة عليه بالايجاب ، وربما يرجع ذلك لعدة أسباب منها انشغال القوم بأمور السياسة وشئونها وشجونها ، وقد أصبحت السياسة معقدة تعقيدا شديدا خاصة في الظروف العربية الراهنة ، فأصبح معظم هؤلاء لا يميلون إلى العلوم والآداب ، وحتى لو وجدوا الميل إلى ذلك فانهم لا يجدون الوقت للمطالعة إلا في شئونهم السياسية .. وحتى لو وجد الوقت لذلك فان كتب العلم والأدب في متناول أيديهم هيأتها لهم الوسائل الطباعية الحديثة فلا يحتاجون إلى وراقين ولا إلى تقريب العلماء والأدباء منهم لأن في ميسورهم الاطلاع على ما يشاءون عن طريق الكتب .

وهكذا أصبح المقربون هم رجال السياسة وكتاب السياسة . أما رجال العلم والأدب فقد دالت دولتهم وذهب مجدهم !!

ولعل الحكومات قد أدركت ذلك حين أولت هؤلاء العلماء والأدباء بعض الاهتمام عن طريق وزارات المعارف والجامعات ومجالس الفنون والآداب ولكنه اهتمام لا يرفع من شأنهم ولا يزيد من قدرهم مثل أيام عزهم ومجدهم عندما كانوا مقربين من سراة القوم ومن بيدهم الحل والربط يتصدرون المجالس وتنحنى لهم الجباه مثل ما هو شأن رجال السياسة الآن ، ولكل زمان دولة ورجال !!

والشيء بالشيء يذكر فما دمنا في سيرة تقريب العلماء والأدباء من الخلفاء والوزراء والرؤساء ، وما ترك ذلك من أثر كبير على النهضة الفكرية والأدبية واللغوية حيث أن معظم كتب التراث أُلّفت بناء على طلب من وزير أو سريّ محب للأدب فلا بأس أن نضرب أمثلة من ذلك فيما يلي :

---

(١) جلالة الملك الآن .

١ ـ أبو حيان التوحيدى :

لقد اتصل أول ما اتصل بالصاحب بن عباد .. ثم بأبي الفتح بن العميد فلم يجد عندهما ما يقدره لنفسه وعلمه من مكانة فانصرف من عند كل منهما مغاضبا إذ يرى من حقه أن يكون ، وهو العالم الأديب ، مقربا أكثر من غيره فلما لم يحصل له من ذلك ما يريد ألف فيهما كتابه (مثالب الوزيرين) رماهما فيه بكل هامة وطامة من لاذع القول ولواسع الهجاء .. ولا يزال هذا الكتاب شهيرا خالدا .

ثم لما اتصل التوحيدي بأبي الوفا الذى أوصله بدوره بالوزير (أبو عبد الله العارضي) ألف كتابه الضخم (الامتاع والمؤانسة) حيث طلب أبو الوفاء من أبي حيان التوحيدي أن يؤلف له مسامراته مع الوزير ، وقد هدده إن لم يفعل بالقطيعة والهجر .. ذكر كل ذلك في مقدمة الكتاب .. وهكذا كان وجود هذا الكتاب الحافل بالعلم والأدب واللغة .

٢ ـ أبو الفرج الأصفهانى :

وأبو الفرج الأصفهانى أو الأصبهانى ألف كتابه (الأغانى) الضخم الفخم الذى يعتبر من أمهات كتب الأدب العربى بناء على طلب من رئيس حيث يقول هو نفسه : « والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له » .

والأصل في تأليفه أو في طلب تأليفه هو اختيار مائة صوت أي مائة أغنية ، ولكن الاصبهاني لم يرض لكتابه أن يكون مجرد اختيار مائة صوت فذهب يجمع فيه « ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه (....) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره » .

« وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق به ، وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وأثار

وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها ... »

وهكذا كان تأليف هذا الكتاب الضخم بناء على طلب من رئيس .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا .. بل أن معظم كتب التراث قد ألفت بناء على طلب من رئيس أو تقربا بها إلى حظوة من رئيس .

وأعتقد أن البديل الذي يمكن أن يوجد الآن ليس هو تقريب الرؤساء للعلماء والأدباء فذلك قد أصبح في حكم المستبعد ، وإنما يكون على الأقل عن طريق إيجاد الجوائز الضخمة للمؤلفين والأدباء ، كذلك عن طريق التشجيع المادي بشراء كميات من نسخ مؤلفاتهم .. بل وبتخصيص مبلغ معين إعانة لكل من يصدر كتابا جديدا إلى آخر هذه الوسائل المادية التى يمكن عن طريقها إغراء وتشجيع المؤلفين .. ومن ثم ازدهار الحركة الأدبية والنهضة الفكرية ، وإلا فقل على الأدب السلام ورحمة الله .

والشيء بالشيء يذكر أيضا .. فلاشك أن هناك اهتمام كبير من قبل حكومات العالم وزعمائه .. فان هناك الكثير من الأدباء المشاهير في العالم ، مقربون إلى زعماء بلادهم وحكوماتها من أمثال برتراند رسل في بريطانيا فقد كان صديقا شخصيا لتشرشل وغيره من الزعماء البريطانيين على ما كان بينه وبين تشرشل من مداعبات لاذعة .

وهناك أندريه موروا في فرنسا كان صديقا شخصيا مقربا من الجنرال ديجول .

وفى أميركا .. همنجواي إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة .. بل أن من أهم الأمثلة وأبرزها على المستوى العالمي هو اختيار عامنا هذا عام ٧٢م عاما دوليا للكتاب يحتفل به في جميع أنحاء العالم باشراف منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة .

ولا تزال معظم الدول تولي اهتماما كبيرا بالفنون والآداب والمعارف الانسانية

وتنفق بسخاء على تأليف وطبع ونشر الموسوعات ودوائر المعارف وغير ذلك من ضروب الاهتمام حتى لقد وصل الأمر بالنسبة لليابان مثلا أنها تسعى الآن لإيجاد موسوعة شاملة للمكفوفين فهو اهتمام مابعده اهتمام ولفتة انسانية مابعدها ولا قبلها !!

وإنه ليطيب لي أن أعرب عن أملي هنا بأن تهتم الدول العربية بخدمة العلم والأدب واللغة ولو ببعض القدر الذى تهتم به دول العالم المتقدم في هذه الناحية .. وأن تكون بلادنا في المقدمة من كل ذلك .

البلاد ١٣٩٢/٨/٢ هـ



ذكريات وتطلعات !

منذ بداية ميولي الأدبية المبكرة وأنا أقرأ وأسمع عن مجلة (الرسالة) دون أن أطلع على عدد واحد منها .. وعندما انتقلت من قريتي النائية في الجنوب إلى جدة ثم إلى الرياض كنت لا أكاد اجتمع بأديب من أدبائنا المعروفين إلا ويذكر مجلة (الرسالة) وتلمذته عليها .. بل ويفخر بذلك أيّ فخر !!

وكان ذلك يحزّ في نفسي كثيرا حيث كنت أيامها أقرأ كل ما يقع تحت يدي وأقرأ بسرعة هائلة ، وكانت ظروفي لا تساعدني على اقتناء الكتب بالقدر الذي يتناسب مع نهمي وسرعتي في القراءة فكنت أستعير وأرتاد المكتبات العامة وقرأت كثيرا من الكتب ولكني كنت مازلت أجد الحسرة في نفسي لأنني لم أطلع على أي عدد من مجلة (الرسالة) فهي قد توقفت عن الصدور ومجلداتها عزيزة فيئست من الحصول عليها .

وفي احدى المناسبات ذكرت لصديقي وأستاذي عبد الفتاح أبو مدين مدى حسرتي وأسفي لأنني لم أتمكن من الاطلاع على مجلة الرسالة وأن الحديث عنها أصبح عقدة بالنسبة لي فابتسم وسكت ، ولكني فوجئت به يبعث لي بمجلدين ضخمين من مجلة الرسالة فانكببت عليهما أقرؤهما بالحرف الواحد وبعد ذلك بحوالى عام تقريبا تمكنت من الحصول على كامل مجلدات الرسالة وقرأتها جميعا فارتاحت نفسي واطمأن بالي لأنني أصبحت أستطيع أن أقول لقد قرأت مجلة الرسالة !!

ومن الطريف أنني كنت عندما أجد مقالا للرافعى أو طه حسين أو غيرهما أتذكر على الفور أنني سبق أن قرأت المقال في كتاب ما .. ولكن سرعان ما أذكر أنني في الحقيقة أقرأ الأصل لتلك الكتب .

إلى هذا الحد كان أثر وتأثير الرسالة بين القراء ولقد ذكرت كل هذا الآن وأنا أتحفز لكتابة مقال لهذا العدد العكاظي الأسبوعي الجديد الذي يشرف عليه الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين .

ذكرت كل ذلك وتساءلت في نفسي همسا حتى لا أزعج مؤسساتنا الصحفية فتساءلت : ما ضرّ لو أن واحدة فقط من هذه المؤسسات الصحفية المتعددة قد فكرت فى إصدار مجلة أدبية أسبوعية كبرى في مضمونها متواضعة فى مظهرها على غرار مجلة الرسالة مثلا ، على أن ذلك زمن قد مضى ولكل زمان دولة ورجال !!

إن جميع مؤسساتنا الصحفية تتسابق على إصدار الصحف اليومية والأسبوعية ذات الطابع السياسى والاجتماعى الخ .. ولكنها ماتزال تحجم عن إصدار المجلات المتخصصة وإن كانت مؤسسة البلاد قد أصدرت مجلة أسبوعية وأوقفتها ثم هي الآن على وشك إصدارها ومؤسسة اليمامة تصدر مجلة اليمامة .

وهاهي عكاظ تصدر عددا أسبوعيا ولكن المطلوب هو مجلة أدبية بحتة ذات مستوى رفيع تستطيع أن تؤثر في قرائها بالقدر الذي كانت تؤثر به مجلة الرسالة التي كانت مدرسة بذاتها .. فلعل وعسى ؟

ومما يقال عن تطلعاتنا إلى وجود مجلات متخصصة ، يقال أيضا عن جانب مهم من جوانب تنشيط الحركة الفكرية في بلادنا .. فالواقع أن من أهم أسباب ركود حركتنا الفكرية والأدبية هو عدم توفر وسائل النشر فجميع مطابعنا تقريبا تكاد تكون مشغولة باصدار الصحف اليومية والأسبوعية وبالأعمال التجارية الرابحة .. أما الكتب فلا تكاد تحظى بنصيب من اهتمامات هذه المطابع .. وإن وجد هذا الاهتمام فأسعار الطبع مرتفعة .

ومن هنا يتردد الكثير من أدبائنا في طبع كتبهم فتظل حبيسة أدراجهم أو يذهب بها من يستطيع منهم السفر إلى بيروت .

ومن المؤسف أننا في هذه الناحية بالذات متخلفون عن مواكبة نهضتنا الشاملة في مختلف المجالات ، ولست أدرى سببا لذلك غير أنه من قبيل نقص القادرين على الكمال .

والعجيب أن الكثير من الكتاب يطالبون بضرورة وجود دور نشر وتوزيع حيث يأملون عن طريق التنافس بين تلك الدور بوجود حركة فكرية وأدبية نشطة ، وهذا حق ، ولكن هؤلاء الكتاب يغفلون عن ناحية مهمة جدا، وهي أنه حتى عندما وجدت دور النشر في المملكة مثل (دار اليمامة للترجمة والنشر) لصاحبها العلامة الجليل الشيخ حمد الجاسر ، وكذلك (الدار السعودية للنشر) لصاحبها الصديق الأستاذ محمد صلاح الدين ، وربما توجد بعد دور نشر أخرى[1] .

فالمشكلة ليست هي مشكلة وجود أو عدم وجود دور النشر ــ على ما لذلك من أهمية ــ بل المشكلة هي انشغال مطابعنا باصدار الصحف والأعمال التجارية ، ومن ثم غلاء أسعارها بشكل لا يشجع على التعامل معها ، والنتيجة أن الدار السعودية استطاعت بكل جهد ومشقة أن تطبع أكثر من سبعين كتابا ولكن جميعها أو معظمها طبعتها في بيروت رغم كل عوائق النقل وضياع الوقت .

أما الشيخ حمد الجاسر فقد أقام في بيروت بصفة نهائية ، ربما فقط من أجل طبع كتب دار اليمامة للترجمة والنشر وإصدار مجلة العرب .

وهذا أبلغ دليل على أن مطابعنا وهي الركيزة الأساسية لأية انطلاقة فكرية وأدبية لاتزال ظروفها غير مواتية لوجود حركة طبع ونشر ، وهو الوجود الذى لا تكون بدونه حركة فكرية وأدبية[2] .

عكاظ الأسبوعية ١٣٩٣/١١/٧ هـ

---

(١) وجدت الآن بالفعل الكثير من دور النشر ، وازدهرت حركة النشر فى بلادنا ولكن المتاعب الطباعية ماتزال قائمة رغم ازدياد عدد المطابع عن ذى قبل .

(٢) للانصاف نقول أنه قد وجدت الآن نهضة طباعية مزدهرة في بلادنا .. والأمل كبير في ازدهار النشر .



عمادة الأدب العربي ؟!

(الدكتور طه حسين .. عميد الأدب العربي) .. كيف ومتى أطلق عليه هذا اللقب ؟

هل كان ذلك في مهرجان شعرى أو أدبي .. كذلك المهرجان الذي أقيم للشاعر المرحوم أحمد شوقي .. وأطلق عليه فيه لقب أمير الشعراء .. وبايعه فيه شعراء العروبة في عصره ؟ واعترض بعضهم بصوت خافت ؟

السؤال بالتحديد .. كيف ومتى ولماذا أطلق لقب (عميد الأدب العربى) على الدكتور طه حسين ؟

غير وارد عندي مطلقا أن أجيب على السؤال بأن الدكتور طه حسين يستحق اللقب .. أو لا يستحقه .. فذلك ليس من شأني ولا يدخل في إطار موضوعي هذا وإن كنت لا أستطيع أن أنفي ، ولست في حاجة إلى أن أثبت أن الدكتور طه حسين قمة شامخة من قمم الأدب العربي منذ فجر اليقظة العربية الحديثة إلى الآن .

قلت (قمة شامخة) .. ولم أقل أعلى قمة .. فهل استحق اللقب .. لقب (عميد الأدب العربي) لأنه أعلى قمة أدبية في عصره ؟

ذلك ما لا يزعمه ولا يدعيه لنفسه دكتورنا طه حسين نفسه .. وإن كان قد زعمه بعض الذين اعتادوا المبالغة ، والمغالاة ، والافراط في الاعجاب .

أما الدكتور طه حسين نفسه .. فانه ينفى ذلك أشد النفي .. ويرفضه كل الرفض فذلك حيث يقول في كتابه (خصام ونقد) ص ١٠٢ ط بيروت .

(ولعل الأستاذ ــ يقصد عباس محمود العقاد رحمه الله ــ يعلم إنني لم أحفل قط بعمادة لهذا الأدب أو ذاك ، ولم يعنن قط أن تأتي هذه العمادة من المجددين أو المحافظين لأني لا أعرفها ولا أقرها فضلا عن أن أطلبها أو أتلقاها من أي ناحية تجيء) .

هذا هو النص وهو بقلم الدكتور طه حسين نفسه يضع أيدينا على خلاف ما يعتقده بعض الأدباء من أن الدكتور طه حسين هو عميد الأدب العربي بحق وحقيق .. أو أنه قد جعل من نفسه كذلك .

ولو علم بعض هؤلاء الأدباء .. قصة (عمادة الأدب العربي هذه) وكيف نشأت لضحكوا ملء أشداقهم .. ولكفوا عن هذا الهذيان بعمادة الأدب العربي .

فالواقع أن الدكتور طه حسين لم يحلم بهذا اللقب الضخم .. ولم يرشح نفسه قط لذلك .. ولا رشحته أية جامعة أو أي أديب .. وكلما هنالك أي (الحكاية وما فيها) أن الدكتور طه حسين كان عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة فلما فصله (صدقي باشا) من الجامعة لأسباب سياسية معروفة .. قامت صحف المعارضة بحملة شديدة على (صدقي باشا) .. لقبت الدكتور طه حسين خلالها بلقب (عميد الأدب العربي) وليس عميد كلية الآداب وحدها .

وهذه المعلومات ليست من عندي ، ولا من خيالي وإنما هي من كتاب (عشرة أدباء يتحدثون) الصادر عن دار الهلال ص ٢٠ وهو من كلام الدكتور طه حسين نفسه .

وإذن فلقب (عمادة الأدب العربي) هو مجرد فورة من فورات صحف المعارضة مجرد مناسبة عفوية أطلق فيها اللقب فتلقفه شرقنا العربي المفتون بالألقاب وكان ذلك منذ عام ١٩٣٢ م . ومنذ ذلك الحين أصبح الدكتور طه حسين عميداً للأدب العربي .. دون أن يخطر ذلك في بال أحد ولا في بال الدكتور نفسه ولم يخطر آنذاك في بال صحافة المعارضة نفسها !!

زراعة القمح تسبق الأدب !

لاشك أنه يحق لنا هذه الأيام أن نكرر القول ونبدي ونعيد حول أدبنا السعودي بمناسبة انعقاد أول مؤتمر للأدباء السعوديين ، خاصة وأن كل الظروف مواتية لأن يكون هذا المؤتمر بداية بعث أدبي جديد[١] .

ولعله ليس من قبيل الصدف وحدها أن يكون توقيت اعلان الانتهاء من دراسة نظام المجلس الأعلى للآداب والفنون[٢] ، هو نفس توقيت أول اجتماع لأول مؤتمر أدبي سعودي . ثم يعلن ذلك معالي وزير المعارف نفسه في كلمة الافتتاح . لكأنه أراد أن يقول بل هو قال فعلا ما معناه تلميحا أو تصريحا :

أيها الأدباء ، لقد حان دوركم في الرعاية وليس هذا المؤتمر إلا فرصة أتاحتها جامعة الملك عبد العزيز لنستطيع التعرف على مطامحكم وتصوراتكم للمستقبل ، وما عساه يعترض حركتكم الأدبية من عقبات أو معوقات ليكون كل ذلك أساسا للمرحلة الجديدة التي تبدأ مع بداية وجود المجلس الأعلى للآداب والفنون .

كان كل ذلك شديد الوضوح في كلمة معالى الوزير التي افتتح بها المؤتمر .

أما الأدباء أنفسهم فقد كانوا مشدوهين ، تثيرهم الفرحة من جهة وتدهشهم المفاجأة من جهة أخرى !!

كانوا ــ أي الأدباء ــ قد تعودوا التواضع الشديد فلما وجدوا أنفسهم وسط هالة كبيرة من التكريم والحفاوة والتقدير ، غمرتهم الفرحة ، وامتلأت أنفسهم بالعزة ، وإن تخالج في أنفسهم ما يختلج عادة في النفس من اضطراب وخوف !!

---

(١) مع كل أسف لم يثمر هذا المؤتمر ولم ينفذ أي شيء من توصياته .. بل لم تكرر فكرته نفسها حيث لم يعقد أي مؤتمر للأدباء بعد ذلك !

(٢) لم يتم أي شيء مهم أيضا بشأن هذا المجلس .

الخوف ؟. الخوف من أن يكون الفرح حلما لا حقيقة .

وهكذا انتعش الأمل في النفوس بعد كل يقين جديد بأن مصدر الفرح حقيقة لا خيالا .. يقينا وليس طيفا .

حقيقة أن معالي الوزير كعادته لم يسرف في بذل الوعود وقطع العهود بأن ينقل الأدباء وأدبهم من البؤس إلى النعيم ، من شقاء الاهمال والجحود إلى جنة من الرعاية والعناية يسكن فيها الولدان المخلدون والحور العين الذين يطوفون بأكواب من ذهب على حلقات الأدب .

ولكنه ــ أي معالي وزير المعارف قال بتواضع كبير أن مجلس الوزراء قد انتهى من دراسة نظام المجلس الأعلى للفنون والآداب .

وأبى عليه تواضعه أن يقول ماذا يمكن أن يعنى الانتهاء من ذلك .

ولم يشأ بالطبع أن يذكر لهم ما اشتمل عليه هذا النظام لا لأن ذلك سر من الأسرار التى لابد أن يحتفظ بها عضو مجلس الوزراء ، بل لأن المقام مقام تكريم من معاليه للأدباء فلم يشأ أن يستعرض أمامهم ما استطاع هو انجازه لهم .

وعلى ذكر الانجاز ، لابد أن نشير إلى الأسباب والمسببات التي حققته .

وقبل ذلك لابد أن نشير إلى الواقع الذى كان ، ومازال يعيشه الأدب والأدباءقبل هذا الانجاز .

نعم ، وبوضوح وصراحة ، نقول أن الأدب والأدباء كانوا في آخر القائمة من الاهتمامات المباشرة للدولة ، وإن كانت هناك اهتمامات ضمنية أو فردية من بعض المسئولين ، وإنما أقصد أنه لم يوجد مرفق خاص بالذات من مرافق الدولة يهتم بشئون الأدب والأدباء مثل مجلس الآداب والفنون مثلا .

اللهم نعم .. إن وزارة المعارف مسئولة ــ كما هو مفروض ــ عن شئون هذا الأدب وأربابه فذلك ــ كما هو معروف ــ من مهامها ومسئولياتها ، ولكنها ــ أي وزارة المعارف ــ كانت في شغل شاغل بما هو أهم .

كانت مشتغلة بالتعليم :

التعليم الابتدائى .

التعليم المتوسط .

التعليم الثانوى .

التعليم الجامعي[1] .

وهذا كله مع وجوده وتكامله الآن عندنا ـــ كان إلى سنوات قليلة مضت غير موجود أساسا بل كنا ومازلنا أو مازالت وزارة المعارف بالأصح تستقدم المدرسين للمراحل المتوسطة والثانوية وحتى الابتدائية .. إلى جانب الموجودين من المدرسين السعوديين الذين أمكن توفيرهم .

ومع ذلك ، أي مع أننا لازلنا نستورد المدرسين حتى للمدارس الابتدائية يوجد لدينا من هيئات التدريس الجامعية أساتذة من صميم بطاح مكة ، أو حرار المدينة ، أو شماريخ اليمامة ، أو قنان السراة ، أو سهول تهامة .

بخ بخ .. كيف يكون هذا كله دفعة واحدة ؟ نترك السؤال ، ونعود إلى ما يجب ذكره عن الأسباب والمسببات التي حققت هذا الانجاز الخاص برعاية الأدب والأدباء .

ولنقلها صريحة :

إن الأدب عندنا لم يكن وليد حركة علمية منهجية منظمة ، كما هو الشأن عند غيرنا ممن سبقونا ، وإنما كان وليد جهود فردية استطاعت أن تشق طريقها وسط ظلام حالك من غشاوة الجهل !

ويكفي أن نذكر أن الرعيل الأول الذى لايزال معاصرا من أدبائنا لم يتعلم في جامعة أو حتى في مدرسة نظامية ، وإن كان بعضهم أو أقلهم قد تمكن من

(١) أصبح للتعليم العالى ـــ بعد ذلك ـــ وزارة مستقلة

بعض ذلك أي من بعض ما دون الدراسة الجامعية أو الدراسة العليا في انتظام ، ولكن ذلك لم يكن كل شيء فى تكوينهم بقدر ما كان اجتهادهم الهائل واطلاعهم الحر ، ونبوغهم الذاتى هو الأساس في تكوينهم .

ولايزال أشهر أدبائنا الموجودين في الساحة الأدبية على صعيد النشر والذكر حتى من بين الشباب أنفسهم ، من الذين لم يتمكنوا حتى من إنهاء دراستهم الثانوية فضلا عن الجامعية اللهم إلا فيما ندر .

ولا أعني بذلك بالطبع أن الأديب لا يمكن إلا أن يكون (متدكترا) فكم من المتدكترين لا يفهمون شيئا في الأدب أو لا يفهمون إلا جانبا منه ، وكم من جلاس الكتاتيب ، وأروقة المساجد ، ومؤتبطى الكتب ، وجثاة الركب في طلب العلم قد نبغوا في الأدب أي نبوغ !!

ولكن الذي أردت أن أقوله أن قوام أدبنا منذ اليقظة الحديثة لم يكن وليد حركة تعليم عامة شاملة ينبغ فيها من ينبغ ، ويستفيد فيها من يستفيد بما يسر الله ، على قدر ما بذله من جهد في دراسته وإنما كان ــ أي أدبنا ــ وليد نبوغ أفراد نابغين بذاتهم .

أما الآن فقد وجد المتعلمون المجتهدون .. ووجد من بينهم المتعلم المجتهد النابغ أيضا .

فماذا يعنى كل هذا ؟

ماذا يعنى أن تكون الساحة الأدبية مشغولة الآن بكثير من الواغلين فى الوقت الذى أصبح يوجد فيه أساتذة منا في جامعاتنا ؟

الجواب بكل بساطة هو أن الصحافة عندنا هي الوسيلة الأولى في نشر أدبنا وماتزال .

وهذه الصحافة قد نمت عندنا على هذا الأساس ، ولم تستطع قط إلى الآن أن تتخلص من هذا المفهوم حتى وهى مشتركة الآن في الوكالات العالمية للأنباء والصور .

أي أن مفهوم الصحافة عندنا ظل كما هو قبل ٤٠ أو ٥٠ عاما وهو أن الصحفى هو من ينشر له فى الصحف ، ولو نشر له بعد كل حين عشرة أسطر أو أكثر أو أقل عن قمامة لم تزلها البلدية ، أو إشارة مرور خربة لم يصلحها المهندس الكهربائى في قلم المرور[1] .

وهذا ليس عيب الصحافة ، وإن كنت لست مدافعا عنها مع إنني أحد أفرادها ، وإنما هو عيب الظروف التى جعلت من الصحافة الوسيلة الأولى والمثلى لاشتهار أديب ، بل هو عيب الظروف التى جعلت القارئين في بلادنا يعتقدون أن الأديب هو من ينشر اسمه في الصحف حتى ولو كان ما كتبه عن إشارة مرور خربة أو عن قمامة لم تزلها البلدية .

وعلى كل حال فان ما أريد أن أقوله ـــ بعد كل هذه الاعترافات عن واقعنا الأدبي ـــ هو أن الحكومة لم تكن في غفلة تامة عن الاهتمام بأدبنا وأدبائنا وإنما كانت تبذر البذور في كل ناحية ، وقد ساعدتها الظروف أن تستطيع بذر هذه البذور ، وكانت تنتظر الثمار .

ومن عجب أن تنجح زراعة قمح (الماكس) قبل أن يعقد أول مؤتمر للأدباء السعوديين ، بل قبل أن ينتهى مجلس الوزراء من دراسة نظام المجلس الأعلى للآداب والفنون .

أليس ذلك عجيبا ؟

نعم ، إنه عجيب حقا فى منطق غيرنا ممن سبقونا فى تكوين حضارتهم وبذرها حبة فحبة .

أما نحن فقد نثرنا كل البذور دفعة واحدة لأننا صحونا فى وقت متأخر وساعدتنا الظروف بامكانات طيبة ـــ بحمد الله ـــ في هذه الصحوة المتأخرة .

ولأننا نثرنا البذور دفعة واحدة لم يكن عجبا أن تنجح زراعة (الماكس) ،

---

(١) الواقع أن صحافتنا قد تطورت الآن بحيث لم يعد ينطبق عليها تماما ماذكرناه في هذا المقال القديم .

وهو قمح غريب جدا على صحراء بلادنا ، قبل أن تنجح زراعة الفكر والأدب مع أنها زراعة نابعة من أرضنا منذ قرون عديدة .

ذلك لأن زراعة القمح تعتمد على مجرد وجود التربة الخصبة والمياه الوافرة ، ومجرد البذر فتنمو بسرعة .

أما الفكر والأدب فأيضا يحتاج إلى وجود التربة الخصبة ، وهي موجودة ، ولكن بعد هذه القرون من التخلف والخمول والركود الفكري والأدبي ، لا يمكن إلا أن يتأخر قليلا أو كثيرا نمو النبت الفكري أو الأدبي لأن جذع النخلة لا ينمو بالسرعة التى تنمو بها قصبة قمح (الماكس) .

وخلاصة أو قصارى القول هو أن مؤتمر الأدباء السعوديين يشكل أو يكوّن أولى ثمار بذرة أو نبتة الاهتمام الفكري والأدبي التى غرستها الدولة ، ممثلة في وزارة المعارف ، أو سواها من المؤسسات المختصة بالثقافة والتعليم .

أليست جامعة الملك عبد العزيز وهي التي دعت إلى المؤتمر وتبنته ورعته وأكرمته وأنجحته أيضا هي نفسها واحدة من المؤسسات التعليمية التى تعيش الآن ومنذ مدة بل ومنذ وجودها في بحبوحة رعاية الدولة ؟

أوليست جامعة الرياض بما تضم من طلبة يعدون بالآلاف ، وأساتذة منا وفينا يعد الواحد منهم بالألف ؟

أوليس كل ذلك مما لابد أن يعتبر رعاية سابقة ــ بطريقة أو بأخرى ــ للفكر أو الأدب السعودى ؟

أما رعاية اليوم ، الممثلة بدايتها في هذا المؤتمر ، فهي تكريم لأرباب مرحلة سابقة من مراحل الفكر والأدب بطريقة مهذبة جدا ، وهي في الوقت نفسه بداية لرعاية مرحلة جديدة مكونة تكوينا مدروسا بطريقة علمية لا تسمح بالشهرة لمجرد من يكتب في الصحف عن قمامة لم تزل .. أو إشارة مرور مطفأة .

البلاد ١٣٩٤/٣/٤ هـ

أدب الرحلات !

لأدب الرحلات في تراثنا العربي والاسلامي شأن عظيم .. فقد ترك لنا أسلافنا من هذا القبيل ثروة كبيرة ..أفاد منها رجال البحث أعظم فائدة في مختلف النواحي التاريخية والأدبية والجغرافية .. الخ .

ولا تزال تلك الآثار معينا لا ينضب للدارسين والباحثين .. فرحم الله أولئك الأسلاف الأفذاذ الذين تجشموا مشاق السفر وعنته وهول مخاوفه ، يقطعون الفيافي والقفار ويجوبون الأقطار والأمصار ، ويدونون خلال كل ذلك مشاهداتهم وانطباعاتهم بكل دقة وعناية بل يرسمون الخرائط الجغرافية ويحددوا المعالم .. ولا يتركون شاردة أو واردة إلا ودونوها .

ولقد ازدهر أدب الرحلات أيما ازدهار لأنه كان يشتمل على الكثير من عجائب الدنيا وغرائبها وطباع الشعوب ومشاربها واختلاف عاداتها .. مما كان يجهله الناس كل الجهل لسبب تفاوت المسافات وانعدام المواصلات السريعة كما هو الشأن في عصرنا الحاضر فكانوا يعجبون لذلك كل العجب .

أما اليوم فان أدب الرحلات بمفهومه القديم أمر لا غناء فيه ولا جدوى ، ذلك لأن أحداث العالم كل العالم تقريبا في متناول سائر الناس في مختلف أنحاء المعمورة في نفس اليوم بل ربما في نفس الساعة أو الدقيقة عبر موجات الأثير بالصوت والصورة عبر الراديو أو التليفزيون !!

فأما عادات الشعوب وغرائب طباعها وتقاليدها فقد تكفلت الأفلام السينمائية والتليفزيونية بذلك بأدق صورة وأوجز عبارة .

وفضلا عن ذلك فقد أصبح في ميسور كثير من الناس أن يتناول افطاره في جدة مثلا .. ثم يتغدى أو يتعشى في واشنطن أو باريس أو لندن ، أي أن معرفة

العالم أصبحت متاحة بسهولة ويسر لكثير من الناس .. فلم يعد هناك ما يدهش ويثير مثلما كان الشأن أيام ابن بطوطة مثلا .. فقد كان في أيامه كل شيء يدهش ويثير !!

وذلك لأن سكان كل بقعة في الأرض لا يكادون يعرفون شيئا عن أدنى الأقطار منهم فكيف عن أقصاها ولذلك كانت أخبار الرحلات مدهشة ومثيرة ولذلك كان لأدب الرحلات تلك المكانة المرموقة في تراثنا العربي والاسلامي .

أما اليوم وعلى الرغم من كل ما ذكرنا آنفا من الأسباب والعوامل التي جعلت من أدب الرحلات أمرا ثانويا .. إلا أن الكلمة المكتوبة فيما يبدو ستظل محتفظة بمكانتها رغم الأفلام السينمائية والتليفزيونية والصور الفوتغرافية وبرامج الاذاعات ولكن الأمر اختلف عن السابق حسب مقتضيات العصر وامكاناته وتسهيلاته فلقد استعيض عن أدب الرحلات بطابعه القديم المعروف الذى يعتمد على الوصف الدقيق وتحديد المعالم والمسالك .. الخ .. استعيض عنه الآن بما يسمى بالريبورتاجات الصحفية المصورة أو غير المصورة وهي غالبا ما تتحاشى المعلومات المعروفة أو التى سبق أو أمكن سبق معرفتها عن طريق الراديو والتلفزيون والأفلام السينمائية .. الخ أي ما تبقى بعد كل ذلك !!

ولعل خير مثال على ذلك كتاب أنيس منصور (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) فان النجاح الذى حققه هذا الكتاب لا يعود لكونه فقط قد جمع معلومات يجهلها الناس وإنما يعود — أى نجاح الكتاب — إلى الحاسة الصحفية اللماحة عند أنيس منصور التي استطاع أن يلتقط بها ما لم تلتقطه عدسات التليفزيون أو السينما أو وكالات الأنباء !!

وإلا فانه لا يمكن أن يخطر في بال أحد أن يحقق أنيس منصور أو غيره أدنى نجاح فى كتاب من هذا القبيل لو أنه اتبع طريقة القدماء في تدوين مشاهداتهم وتسجيل انطباعاتهم وطريقتهم في تحديد المعالم وجغرافية المسالك إذ لو فعل ذلك لكان أضحوكة بين القراء الذين يعرفون الشيء الكثير مما يمكن أن يسرده أو يذكره !

والسؤال الآن هو : هل يندثر أدب الرحلات ؟ والجواب نعم .. ولا فى آن واحد !

نعم سيندثر بل قد اندثر فعلا أدب الرحلات الذى يستهدف جغرافية الأقطار أو يسرد المشاهدات ويصف الطرق ويذكر العجائب ويصف ما لا أذن سمعت .. الخ .

أما أدب الرحلات الذى يعتمد على الحاسة اللماحة والطرفة الخفيفة واللمحة الذكية والانطباعات الذاتية المفعمة بالحس المرهف والوجدان الشفاف .. فهذا هو الأدب الذي سيبقى وهذا هو أدب الرحلات الجديد سواء كان من (أوراق مسافر) لأمين نخلة ، أو من (جعبة) سعيد فريحة أو من فلافل وتوابل أنيس منصور أو حتى من رصانات جمال الفراء أو على الأقل من ضحك وبكاء فكري أباظة ورحم الله شوقي حيث يقول :

لكـــل زمـــان مضى آيـــــة وآيـة هذا الزمـــان الصحـــف

فهذه الصحف هي وحدها التى أبقت على أدب الرحلات حتى وإن اختلفت الأساليب وتباينت الغايات فالنتيجة واحدة على كل حال !!

البلاد ١٣٩٤/٥/٨ هـ





فهرس

الموضوع	الصفحة



صدر للمؤلف

- حصـاد الكتب
- مناوشات أدبيـة
- أدب وأدبـاء
- سنابل الشـعر
- رسالة الجامعـة
- على المـاشي


طبع بدار العلم للطباعة والنشر
ص ب ٤٧٩٧ - جدة ٢١٤١٢ - تليفون ٦٧١٢١٠٠